



أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ "المرايا نموذجاً"

كتاب المستقبل

رئيس مجلس الإدارة

د. ماهر مصطفی کامل

مدير المركز د. معمد عاطف كشك

مدیر التحریر معطفی پیبوهــی الكتاب:أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ "الرايا نموذجاً"

الوّلف: مصطفى بيومي

الناشر: مركز دراسات المستقبل - جامعة النيا دار الهدى للنشر والتوزيع

رقيم الإيسداع : ۲۰۰۱/۳۱۲۲

الترقيم الدولى : 8-40-822 977-5822

جميع الحقوق محفوظة للناشر

المراسلات

جامعة المنيا – مركز دراسات المستقبل ت/فاكس 086/345394



المنيا ـ 5 ميدان الساعة – ص ب 4 عمومي ت 086/346713 – فاكس 0123454568

دار الماسي للطباعة وهمل الألوان ت، ١٥٢٨-٢٦٤-٨٢٢ عن ٥٢٤٣١٤

أستاذ الباعدة أو عالم نبيس عشوا

مصطفى بيومي

مركز دراسات المستقبل - جامعة المنيا دار الهدى للنشر، والتوزيع

كتاب المستقبل

تهدف هذه السلسلة إلى:

- رفع مستوى الوعلى بالقضايا والتحديات المستقبلية والنهوض بمستوى الحوار حولها لدى مختلف القوى الاجتماعية.
 - استثارة الاهتمام المجتمعي الجاد بالمستقبل وقضاياه.
- الإسهام فى تكوين مكتبة علمية لدراسات المستقبل من خلال إبداعات علماء جامعة المنيا وأصدقاء المركز من المفكرين والعلماء المصريين.

إن هدف الدراسات المستقبلية ليس فقط معرفة احتمالات واتجاهات التغير والاستعداد لها، وإنما أيضا التأثير فيها في الاتجاهات المطلوبة.

مقدمة

د. ماهر مصطفی کامل رئیس جامعة المنیا

فى سياق احتفاء جامعة المنيا بأسبوع شباب الجامعات الذى تستضيفه فى فبراير 2001، يقدم مركز دراسات وبحوث المستقبل هنذا الكتيب عن "أستاذ الجامعة فى عالم نجيب محفوظ" من خلال رواية "المرايا" التى تبدى اهتماما كبيراً بشخصية الأستاذ الجامعى ودوره فى الحياة المصرية.

مكانة نجيب محفوظ معروفة ولا تحتاج إلى حديث طويل، وهو ابن من أبناء الجامعة المصرية حيث تخرج في كلية الآداب بجامعة القاهرة "فـؤاد الأول" سنة 1934، والذي لا شك فيه أن كاتباً في مثل قيمته وقامته يستطيع أن يقدم شهادة مهمة عن التاريخ المصرى الذي تحتل فيه الجامعة مكاناً بالغ الأهمية.

ومن الكتيب الذى نقدم له يمكن استخلاص مجموعة من المفردات المهمة عن الجامعة وأساتذتها في الواقع المصرى.

. أول الملامح المستخلصة أن الأغلبية العظمى لا ترى في الجامعة إلا وسيلة للحصول على وظيفة، مهملة بذلك الدور العلمي والثقافي الذي لا ينبغي أن يختصر إلى مجرد أداة للعمل بمعزل عن العلم.

الملمح الثاني أن أستاذ الجامعة لا ينفصل عن المجتمع في سلوكه

وممارساته، وقد لا يخلو الوسط الجامعي من المنحرف بن الضالين، ولكنهم لا يؤثرون في مجمل الصورة الإيجابية للجامعة كمنارة للعلم والتنوير.

وثمة ملمح ثالث يتجسد في الدور الثقافي الذي يمارسه أساتذة الجامعة، فهم عنصر فعال في تشكيل الثقافة القومية بما يضيفونه من مؤلفات وبحوث وما يقدمونه من أفكار ونظريات.

ولقد نجح مؤلف الكتاب، من خلل التمهيد والخاتمة والفصول السبعة التي تتكون منها دراسته، أن يستنبط شهادة كاتب العربية الأول نجيب محفوظ عن الجامعة المصرية منذ نشأتها إلى نهاية الستينيات. ولا شك أن تطوراً كبيراً قد طرأ على الجامعات في العقود التالية، وهو ما لم يعبر عنه نجيب محفوظ بحكم الإطار الزمني الذي يكتب عنه وفيه.

والمأمول أن يكون الكتاب الذي يقدمه مركز دراسات وبحوث المستقبل بجامعة المنيا، بمثابة التحية للمشاركين في أسبوع شباب الجامعات وأن يكون – في الوقت نفسه – تحية للروائي العالمي الكبير.

و. ماهر مصطفی کامل

مقدمة

د. محمد عاطف کشلك

مدير مركز دراسات المستقبل

عندها كنت طالباً فى الجامعة فى أوائل الستينيات كنت أنظر الى أساتذتى باعتبارهم أنصاف آلهة أو قديسين وهبوا أنفسهم للعلم والتعليم، وعندما أصبحت أستاذاً بالجامعة تغيرت نظرتى إلى أستاذ الجامعة حيث كنت أقرب إلى رؤية أشياء لا يستطيع أن يراها الطالب فى أستاذه. رأيت أساتذة وهبوا أنفسهم للعلم والتعليم ورأيت أساتذة وهبوا أنفسهم للجهل والتجهيل وآخرين وهبوا أنفسهم للغش والتدليس، وفيما بين النقيضين شاهدت كل أنواع الطبائع والأخلاق.

وبجانب خبرتى الشخصية التى تطورت كما ذكرت، كنت أقرأ أحيانا بعض الأعمال الأدبية أو أشاهد بعض المسرحيات أو الأفلام السينمائية أو المسلسلات التليفزيونية التى تصور بعض أساتذة الجامعة، وفيما عدا قلة قليلة من هذه الأعمال، كانت صورة أستاذ الجامعة كما تعرضها الأعمال الأدبية أو الفنية صورة بالغة السطحية وأحياناً بالغة التشوه، كأن يعرض أستاذ الجامعة في صورة رجل (أو امرأة) مهملاً في حياته الشخصية وفي مظهره دائم النسيان والتوهان يرتدى معطفاً أبيض ونظارة سميكة يقف في معمله أو ينكب على كتبه ومراجعه ولا يدرى شيئاً عما يدور حوله من أحداث.

وهذه الصورة السطحية أو المشوهة لأستاذ الجامعة في الأعمال

الأدبية أو الفنية طالت أيضاً غيره من فئات المجتمع مثل القضاة أو المحامين أو الأطباء أو المهندسين، وحدثت بسببها أحياناً مشاحنات أو اعتراضات من بعض هذه الفئات على منتجى العمل الفنى أو الأدبى. لكننا فى هذا الصدد يجب أن ندرك أمرين: الأول أن العمل الأدبى أو الفنى غير مطالب بأن يعرض صورة مثالية لأى فرد من أفراد المجتمع، والثانى أن مثل هذه الصورة المثالية لا وجود لها فى الواقع. فأستاذ الجامع أو القاضى أو المهندس لا يتم تكوينه فى أنبوبة اختبار بمعزل عن المجتمع الذى يعيش فيه، وهو مثله مثل أى فرد آخر فى المجتمع نتاج التطور التاريخى والظروف السياسية الاقتصادية — الاجتماعية — الثقافية السائدة.

والكتاب الذى بين أيدينا يقوم صورة الأستاذ الجامعى فى رواية من روايات الكاتب المصرى العالمى الفذ "نجيب محفوظ"، وربما تكون الصورة التى يقدمها غير كاملة أو غير معبرة من كل ما نتوقعه أو نعرفه عن أستاذ الجامعة، لكن أهميتها تنتج من عاملين:

الأول: أهمية ومكانة نجيب محفوظ وخاصة في تعبيره الواعي والمستنير عن جوانب كثيرة من الواقع المصرى.

الثانى: المعرفة الموسوعية لمؤلف الكتاب الصديق مصطفى بيومى بالأدب المصرى المعاصر عامة وبعالم نجيب محفوظ بصفة خاصة.

وأرجو أن يكون مركز البحوث والدراسات المستقبلية بتقديمه لهدذا الكتاب المهم مسهماً بقدر ما في إزالة أى أوهام متعلقة بصورة أستاذ الجامعة وأن يقدم للقراء – والطلاب بصفة خاصة – صورة أقرب إلى الواقع لأستاذ الجامعة وما يمكن أن يكون له من دور في تشكيل واقع ومستقبل مصر.

و. محمر عاطف كشك

.. E 2 [

إلى أخى ..

الدكتور/ محمسد مؤنسس

وإلى الصديقين العالمين ..

الدكتور/ محمد عاطف كشك

الدكتور/ محيى الدين محسب

وإلى روح المرحوم ..

الدكتور/ على البطيل

• • • • • • •

(القناويل المضيئة في ورب حياة سعتمة

ىم .پ



استاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

ننمميد

بمثل التعليم الجامعى أهمية خاصة فى الواقع المصرى وفى عالم نجيب محفوظ الذى يعكس هذا الواقع ويعبر عنه ويتفاعل معه، ذلك أن الحصول على شهادة جامعية يعنى وجود فرصة لاحتلال مكانة اجتماعية متميزة من خلال الحصول على وظيفة ترتفع بصاحبها درجات فى السلم الاجتماعى الطبقى الذى يميز – بصرامة – بين حملة الشهادات العليا وغيرهم.

لا ينتمى كل الموظفين بطبيعة الحال إلى حملة المؤهلات العليا، فالكثيرون منهم لا يتمكنون من إكمال تعليمهم وتتفرق بهم السبل فى رحلة الحياة الوظيفية، والكثيرون – أيضا – لا يجدون مكانا فى عالم الوظيفة فيقنعون بالمهن والحرف البسيطة التى تتناسب مع تعليمهم المحدود.

الذين زاملوا كمال عبد الجواد في مطلع حياته الدراسية لم يواصلوا رحلة التعليم التي واصلها: منهم من توظف بالابتدائية أو الكفاءة، ومنهم من اضطر إلى مزاولة عمل من الأعمال البسيطة مثل صبى قهوة بين القصرين وصبى الكواء البلدي بخان جعفر. "قصر-75"

والذين يتوقفون عن إتمام دراستهم ويقنعون بالوظائف الصغيرة، يختلفون في الدوافع التي ألجأتهم إلى العمل المبكر، وتتباين حظوظهم بعد العمل.

عدم الاستعداد للتعليم وضعف القدرة على التلقى قد يكون السبب في التوقف دون ضغوط مادية أو أسرية أو خارجية.

كان كامل رؤبة لاظ – منذ البدء – متعثراً في دراسته، ولم يستطع بعد حصوله على البكالوريا بصعوبة أن يتحمل الدراسة في كلية الحقوق. إن ما دفعه إلى التوقف عن الدراسة هو الاستعداد المحدود والعجز عن استيعاب الدروس والخجل من المواجهة. نجح جده في الحصول له على وظيفة صغيرة، ولم يكن التوظف إجباريا حتى تتحطم آماله في المستقبل: لم أكن ممن يشقيهم الطموح، وإذا كان لى منه شئ فيما مضى من أيام الأحلام، فقد قبر في إدارة الخازن بوزارة الحربية حيث تعد علاوة نصف جنيه من الآمال البعيدة. "السراب – 107"

وقد التحق عزت عبد الباقى – مثل كامل رؤبة – بكلية الحقوق، ولكنه خاب فى دراسته القانونية. لا الهمة وجد و لا الحماس، فانقطع عن الدراسة بعد عامين من الالتحاق بها. "عصر-68"

ثراء عزت ينفي أن يكون توقفه عن التعليم بسبب الحاجة. إنها

استاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

الخيبة وافتقاد الهمة والحماس والعجز عن المواصلة. وهذه الأسباب بعينها هي التي جعلت سليمان بهجت يتوظف بشهادته الزراعية المتوسطة في وزارة الزراعة. "الباقي- 35"

ما يجمع بين الثلاثة، كامل وعزت وسليمان، هو توقفهم عن مواصلة الدراسة لأسباب ذاتية تتعلق بفشلهم وعجزهم.

وثمة فريق أكبر يتوقف عن التعليم ويقنع بوظيفة لا تناسب طموحه ومواهبه واستعداده لأسباب مادية تتمثل في العجز عن مواصلة الإنفاق على التعليم، و أسباب أسرية تتمثل في حتمية إنفاقهم على أسرهم بعد وفاة العائل أو توقفه عن العمل.

لقد أحيل والد أحمد عاكف إلى للمعاش – وكان يشارف الأربعين - لإضاعته عهدة مصلحيه بإهماله، وتطاوله على المحققين الإداريين، فأجبر الابن على قطع حياته الدراسية والالتحاق بوظيفة صغيرة لينفق على أسرته المحطمة ويربى أخويه الصغيرين اللذين مات أحدهما، وصار الثانى موظفاً ببنك مصر. "خان – 14"

كان التوقف عن الدراسة طعنة لطموحات وأحلام أحمد عاكف الـذى تحـول – بسبب توقفه عن الدراسة – إلى موظف فى الدرجة الثامنة بمحفوظات وزارة الأشغال لا يملك إلا أن يشكو حظه العاثر ويكرر أقوالاً مثل: " لو أتممت دراستى – وكان نجاحى مضمونا – لكنت الآن كيتا وكيتا"!.

ولم يكن يفوته تتبع خطى المتفوقين من أقران المدرسة الذين واصلوا دراستهم، وليس نادراً أن يرفع رأسه عن جريدة بين يديه، ويقول بإنكار:

"أتعرفون فلانا الذين يقولون عنه ويعيدون؟.. زاملنى عهد الدراسة فصلاً فصلاً، وكان تلميذا خاملا لا يطمع أن يدركني يوما ما. "نفسه – 15"

لو أنه أكمل تعليمه الجامعي لكان له شأن "وظيفي" آخر، ولأنه لم يفعل فقد امتلأ مرارة وحقدا، وانقلب معاديا للجامعيين مسفها للشهادات التي حصلوا عليها!.

أحمد مخلص في حبه لشقيقه رشدى، ولكن هذا الحب لا يحول دون السخرية من الشقيق العابث الذى حصل على بكالوريوس التجارة بمعجزة، وهي "الشهادة" التي تفضل الحكومة حامليها – كما يقول أحمد – على أمثاله. "نفسه – 104"

لم يكن رشدى "جامعياً" بالمعنى الدقيق، فهو لا يعبأ بالوضوعات العلمية وما يصاحبها من اصطلاحات، كما أنه من المؤمنين بعبقرية أخيه، ولذلك رأى فيه أحمد رمزا حياً لإيمان الجامعة المصرية بعبقريته العصامية!. " نفسه -- 109 "

ويختلف الأمر بالنسبة للمحامى أحمد راشد، فهو "جامعى" بحق ويمثل "غريماً" لعاكف الذى يتورط معه فى مناقشة خاسرة عن قيمة وأهمية الشهادات الجامعية. فإذ يفخر عاكف بالمعارف التى يتوهم أنه حصلها من القراءات المتنوعة المشوشة التى يدمنها، مستكبراً ومستنكراً أن تكون ثقافته هذه بهدف الحصول على "شهادة" ما:

- أية شهادة تستوجب هذه الدراسة الطويلة الشاملة؟! ما الشهادة إلا لعبة يستبق إليها الشبان، أما دراستى فلا غاية لها إلا العلم الحق، وربما مهدت بها يوما إلى التأليف المنتج.

استاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

يتساءل أحمد راشد:

-- ما معنى أن الشهادة لعبة؟

فقال أحمد كاظما حنقه:

- الشهادة ليست دليل العلم!

أهى دليل الجهل؟

فأخذ غيظه يفور حتى أجهده أن يكتمه، ثم استدرك قائلاً:

- أعنى أن الشهادة هي الدليل على أن شاباً حفظ بعض المواد بضع سنين والعلم الحق شئ غير هذا البتة!

فابتسم أحمد راشد ابتسامة غامضة وأمسك عن الجدل، وكان يعطف على رأى محدثه فى الشهادات. بل إنه لم يغب عنه الحدة التى يسوق بها رأيه مما جعله يميل إلى فرض احتمال وجود أسباب أخرى لذلك الرأى غير التى أعلنها. "نفسه -52 "

أحمد بلا شهادة جامعية، وغياب الشهادة يدفعه إلى تسفيه من يحملها!. وإذا كان أخوه رشدى يمثل نموذجا للجامعيين الذين لا يعبأون بالعلم والثقافة ولا يمثلون تحدياً لأحمد، فإن المحامى اليسارى أحمد راشد يطرح – بعلمه وثقافته – تحدياً يدفع الموظف المنسى الحانق إلى مناقشة عصبية بلا منطق. الشهادة الجامعية ليست "لعبة" بطبيعة الحال، وإذا لم تكن "دليل علم" فهى ليست بالضرورة "دليل جمهل". المحامى الجامعي ليس متعصباً لأهمية الشهادة، وهو – لأسباب مختلفة تماماً – يتفق مع جوهر أفكار عاكف، ولكنه يدرك أن حنيق

محاوره على الجامعة وشهاداتها ينبع من منطق مختلف.

ولو أن أحمد عاكف واصل دراسته الجامعية لكان له شأن "وظيفى" آخر، ولكان له – بالتبعية – رأى مغاير في الشهادات وأصحابها.

وإذا كانت إحالة عاكف أفندى المبكرة إلى المعاش قد حالت بين الابن أحمد ومواصلة دراسته الجامعية، فإن موت على أفندى كامل قد عرض أسرته لصير مظلم دفع ابنه حسين إلى التوظف بالبكالوريا. رغم تقتير الأم واحتراف الأخت للخياطة، كان توظف حسين ضرورياً لمواجهة الحياة القاسية.

ولأن طموح حسين لا يتناسب مع واقعه الوظيفى، فإنه يعلى مأساة توقفه عن التعليم ويرصد تأثير ذلك التوقف على مستقبله مقارنة بمستقبل أخيه حسنين الذى سيواصل الدراسة: إنه من الغد موظف من موظفى الدولة وبعد أعوام قصيرة أو طويلة يصبح حسنين موظفاً أيضاً من درجة أعلى. "بداية-203"

ويدفعه هذا الوعى إلى تأمل الفوارق الطاغية التى تميز بين الموظفين. "نفسه - 306"

وجانب كبير من هذه الفوارق" الطاغية" يعود إلى المؤهل الدراسي!.

وبعد موت أمه، وهي عائله الوحيد، يضطر عثمان بيومي إلى العمـل بالبكالوريا رغم تفوقه. "حضرة — 14"

لقد اضطر أحمد عاكف وحسنين كامل وعثمان بيومى إلى التوقف عن الدراسة إجبارياً، وشبح التوقف عن الدراسة يواجه محجوب عبد الدايم بعد مرض أبيه وتأكد استحالة عودته إلى العمل. الأب المريض يخاطب ابنه قائلاً:

استاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ المعتاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

ربما منحتنى الشركة مكافأة صغيرة، ستفقد بلا ريب قبل مضى أشهر قلائل، بل المؤكد أنه لن يبقى منها شئ بعد ثلاثة أو أربعة أشهر على الأكثر، ولكن لن أعدم نصيراً يجد لك وظيفة تنهض بنا جميعاً. "القاهرة – 38"

رغبة الأب في توظيف ابنه لـ " تنهض بنا جميعاً " تأتى قبل شهور قليلة من امتحان الليسانس، ويكون المخرج الوحيد أمام محجوب لمواجهة هذا التهديد الكبير لمستقبله أن يعيش الشهور المتبقية حتى الامتحان وظهور النتيجة بجنيه واحد في الشهر: جنيه واحد! أو ما يساوى إيجار حجرة بدار الطلبة؟ رباه! بالأمس ضاقت به الدنيا ونفقته ثلاثة جنيهات، فماذا هو صانع غدا بجنيه واحد؟!. "نفسه-40"

واختار محجوب أن يواصل دراسته ويقبل التحدى، فهو يعلم جيداً قيمة الشهادة التي تستحق التضحية والصبر.

وفضلاً عن ضعف الاستعداد للتحصيل العلمى والعوامل المادية السيئة، فإن هناك من يتوقف عن الدراسة لمزيج من ضغوط الحياة والظروف الذاتية. الفقر ليس الدافع الوحيد في هذه الحالة، ولكنه الدافع الرئيس.

يتوقف حمدون عجرمة عن التعليم بعد المرحلة الثانوية، ويقرر أن يتوظف عن خالته من ناحية ويهب بقية يومه للمسرح من ناحية أخرى. "عصر-56"

ويطوف أنيس زكى بكليات الطب والعلوم والحقوق فيمضى بعلومها دون شهاداتها كأى رجل لا تهمله المطاهر كما يقول رجب القاضى ساخراً. "ثرثرة -31"

ولكن أغيس زكى يقدم السبب الحقيقى لعدم إكمال التعليم، وهو مزيج من عدم الاستعداد ومعاكسة الظروف المادية: لم أوفق للنجاح ثم انقطعت عنى الموارد، فتوظفت في وزارة الصحة بوساطة طبيب من أساتذتى السابقين. "نفسه-63"

وتتدخل السياسة أحياناً لإفساد وقطع رحلة التعليم.

يصف نجيب محفوظ زميله في الدراسة ناجى مرقص بأنه "أنبغ تلميذ في جيلنا"، ولكن السياسة تتدخل لتجبر الطالب النابغ على العمل كموظف صغير في وزارة الحربية. ذهب أبو ناجى لتهنئة الزعيم مصطفى النحاس بالبراءة التي حصل عليها في قضية سيف الدين، وظهرت صورته لسوء الحظ ضمن صور المهنئين فقررت الوزارة فصله. وشق على الرجل الرفت وكان فقيراً كما كان مريضا بالقلب فأصيب بالفالج وقضى نحبه. "المرايا-380"

وبعد موت الأب، يضطر التلميذ النابغ إلى التوقف عن التعليم والرضا بوظيفة لا تناسب نبوغه.

وإذا كانت السياسة سبباً غير مباشر بالنسبة لناجى مرقص، فإنها السبب الوحيد لتوقف حامد على عن إكمال دراسته الجامعية وشغله لوظيفة بسيطة. تسأله عليات التى أعجبت بحديثه الذكى المثقف:

من أى كلية ؟

فقال بلا ارتياح:

- الثانوية العامة فقط!.

استاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

فارتبكت قليلاً وقالت:

- الحق انك مثقف جداً.
 - هذا شئ آخر.

وقرأ في عينيها تساؤلات تداريها بأدبها، فقال:

- عقب حصولي على الثانوية العامة أعتقلت!

فتساءلت باهتمام:

– لم.

فقال ضاحكاً:

-- بنهمة الشيوعية! . " الحب تحت -- 164"

اللافت للنظر في الحوار السابق أن الحديث الذكي المثقف لا ينبغسى أن يصدر — من وجهة نظر عليات — إلا من حاصل على مؤهل جامعي، أما حامد نفسه فيفصل بين الشهادة والثقافة. والفارق كبير بين أحمد عاكف في "خان الخليلي" وحامد على في "الحب تحت المطر"، فالأول حاقد موتور متعالم والثاني مثقف حقيقي بلا ادعاء، وكلاهما بلا شهادة جامعية!.

وهكذا تتعدد الأسباب التى تحول بين الكثيرين وإكمال تعليمهم العالى الذى يؤهلهم لوظائف أفضل من التى يشغلونها بمؤهلاتهم المتوسطة. ولكن: هل ينتهى الأمر عند هذا الحد؟

ألا يمكن استكمال التعليم الجامعي أثناء العمل؟! بعض الموظفين يحاولون ويفشلون، وبعضهم يحاولون وينجحون.

أحمد عاكف من الذين حاولوا وفشلوا: انتسب لكلية الحقوق، ولكنه رسب في مادتين وخشى أن يعاود التجربة فتتعرض عبقريته لامتحان خطير يكشف عن حقيقتها!. "خان-18"

الناجحون أكثر.

كان شرارة النحال عاملا للتليفون ومن حملة الابتدائية، وأثناء عمله المرهق انقلب من جديد تلميذ مجتهداً وحصل من "منازلهم" على شهادات الكفاءة فالبكالوريا وأخيراً ليسانس الحقوق. "المرايا-178"

وعدلى المؤذن توظف بالابتدائية، ثم درس وهو موظف حتى بلغ ما بلغ من العلم. "نفسه-240"

يواصل عثمان بيومى دراسته أثناء العمل حتى حصل على ليسانس الحقوق، ويقدم نجيب محفوظ الأسلوب الوظيفى المتبع لمعاملة الحاصلين على مؤهل جامعى أثناء عملهم من خلال الرسالة التى يخطر بها عثمان المدير العام بحصوله على الليسانس:

حضرة صاحب المعالى المدير العام

أتشرف بإبلاغ سعادتكم باننى حصلت على ليسانس الحقوق هذا العام – من منازلهم – استزادة من العلم واستكمالا للوسائل الضرورية للموظف، مستلهما الهمة من عبقرية سعادتكم، في ظل مولانا اللك المعظم حفظه الله وأدام ملكه.

رجاء التكرم بالعلم والأمر بحفظ الشهادة المرفقة بملف خدمتي. "حضرة-46"

استاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

معايشة نجيب محفوظ الواقعية لعالم الموظفين هى التى مكنته من الإحاطة الشاملة بخصائص هذا العالم الذى لا يعرفه إلا من يعايشه عن قرب. إنه عالم "طبقى"، ولكنه طبقاته هى الشهادة والدرجات العلمية!.

الحاصلون على المؤهلات العليا يتربعون على قمة الهرم الوظيفى، وغير الحاصلين على مؤهلات يسقطون فى السفح، أما أصحاب المؤهلات المتوسطة فيمثلون الطبقة الوسطى. بعض هؤلاء ينجح فى الصعود، والغالبية تبقى متأرجحة يهددها شبح الهبوط وتؤرقها أحلام الصعود.

وفى إطار العلاقة بين التعليم الجامعى والعمل، تتميز المرأة بخصوصية يكشف عنها عالم نجيب محفوظ مشكلة المرأة تكمن فى نظرة المجتمع السلبية، خلال مرحلة تاريخية بعينها، لتعليمها وعملها معاً!.

وعلى الرغم من أن ثورة 1919 قد غيرت كثيراً من المفاهيم والقيم المسيطرة على المجتمع المصرى، فإن قضية تعليم وعمل المرأة من القضايا التى استمرت مطروحة للمناقشة دون حسم، وظل العداء لتعليم المرأة والريبة فى النساء العاملات مستمراً.

تتحدث حرم حمديس بك عن فتيات الجامعة فتقول، وكأنها تدافع عن ابنتها تحية، إن الجامعة تمهيد للوظيفة، وإنها لذلك اختارت لتحية سبيلاً آخر." القاهرة-139"

اللافت للنظر هنا هو الحديث بيقين عن مهمة الجامعة كتمهيد للوظيفة، فإذا غابت الرغبة في العمل تبخرت - بالتبعية - أهمية الجامعة وجدواها!.

بنات الأسر الطيبة لا يعملن! هذا ما يردده ويمارسه ياسين أحمد عبد الجواد، فإذ يقول أحد زملائه:

- ستأخذ ابنتى البكالوريا هذا العام، وسألحقها بمعهد التربية فأرتاح من ناحيتها، لا مصروفات ولا تعب قلب في البحث عن وظيفة بعد التخرج.

یرد یاسین:

– نحــن لا نلحــق بناتنــا بالثــانوى، ولــاذا؟. إنــها لــن تتوظـــف. "السكرية –196"

وبالمنطق نفسه تسرد أمينة على ابنية ابنتها، نعيمة بنيت عائشة، التي تحتج على حرمانها من التعليم رغم أن زميلاتها يواصلن التعلم:

- لست في حاجة إلى الوظيفة! . "نفسه -10"

ياسين وأمينة، وحرم حمديس بك قبلهما، لا يميزون بين الجامعة والوظيفة، فكأن " العلم" الذي يلقن في الجامعة مجرد وسيلة للحصول على "العمل" دون تفكير في وجود أدوار ووظائف أخرى للجامعة. ولذلك تنتفى الحاجة إلى التعليم الجامعي بانتفاء الاحتياج المادي إلى العمل!.

ولكن رفض عمل المرأة لا يعنى بالضرورة رفض تعليمها، فالكثيرون لا يجدون حرجا في أن تتعلم ولا تعمل. مدام حمديس بك تعلم ابنتها، وياسين عبد الجواد يعلم ابنته، وهذا التعليم ينتهى عند مرحلة معينة دون

ستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

أن يفضى إلى العمل. وعبد الوهاب إسماعيل لا يجد بأسا في أن تتعلم المرأة لحساب البيت لا الوظيفة."المرايا-262"

أما الفتاة الأرستقراطية علوية صبرى فإنها تعترف بأنها لا تتعلم من أجل الوظيفة: لم أذهب إلى الجامعة لأتوظف كسائر الزميلات. "السكرية -223"

وفى المقابل لا يعنى العمل نهاية التعليم عند فتيات كثيرات. توظفت أحلام بعد تخرجها في التجارة الثانوية: ولكنى مستمرة في التعليم." الطريق -71"

هل يقتصر دور الجامعة على تخريج الوظفين؟ عالم نجيب محفوظ، الذى يبدى اهتماماً هائلاً بالموظفين وقضاياهم وهمومهم، يبدو أقل احتفالاً بالمجامعة التى تخرج فيها عدد غير قليل من هؤلاء الموظفين. فى عديد فى أعمال نجيب محفوظ طلبة جامعيون ينتمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة، ويتبنون أفكاراً سياسية متباينة، ولكن من الصعوبة بمكان أن نلمس دوراً لأساتذة الجامعة فى تشكيل شخصياتهم والتأثير على آرائهم وأفكارهم. وقد نجد فى "بين القصرين" رصداً أميناً للدور الذى لعبه طلبة المدارس العليا فى ثورة 1919(١)، وقد نجد فى "القاهرة الجديدة" و "السكرية" رصدا مماثلا للحياة الجامعية وما يعتمل فيها من صراعات تعبر عن الواقع السياسى والاجتماعي والثقافي خارج أسوار الجامعة، ولكن الذى يلفت النظر بحق أن

⁽¹⁾ كان الشهيد أحمد فهمى عبد الجواد طالبا فى كلية الحقوق، ومن خلاله تقدم" بين القصرين" عرضا توثيقيا فنيا بالغ الأهمية لأحداث ثورة 1919 و الدور الذى قام به طلبة المدارس العليا"الكليات الجامعية" فى إشعالها.

شخصية أستاذ الجامعة المصرى⁽²⁾ لا تحظى بوجود مؤثر فى روايات وقصص نجيب محفوظ، وهو الذى كان من المكن أن يكون أستاذ جامعياً لولا تعثر إجراءات سفره فى بعثة خارجية⁽³⁾.

لا يحظى أساتذة الجامعة بما يحظى به الموظفون، وثمة مناقشة مهمة تدور بين "الموظف" محجوب عبد الدايم وطالب البعشة الذى سيعود أستاذاً جامعياً مأمون رضوان: وتحدثا عن البعثة والوظائف الإدارية والفنية ومهنة التدريس في الجامعة والمدارس الثانوية، وانتقد مأمون النظام الجائر الذى يحرم المتخصصين الاشتغال بفنهم الذى تخصصوا فيه، ولم يرتبح محجوب إلى التهوين من شأن الوظائف الإدارية، وقال لصاحبه: إنها تنفرد بمجد ليس لمهنة التعليم منه نصيب. وكان مأمون يفهم المجد على نحو بمجد ليس لمهنة التعليم منه نصيب. وكان مأمون يفهم المجد على نحو

⁽²⁾ تجدر الإشارة هنا إلى وجود أساتذة أجانب، من الإنجليز والفرنسيين تحديدا، في الجامعة المصرية خلل العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات، والوجود الأكبر لهؤلاء الأساتذة عند نجيب محفوظ نجده في "القاهرة الجديدة" و "السكرية". وعلى سبيل المثال فإن الأستاذ الفرنسي للفلسفة في رواية "القاهرة الجديدة" هو الذي رشرون مسامون رضوان لبعثة السوريون، ووصى بتعيين على طه في المكتبة ليتهيأ له جو حسن لتحضير رسائته. "القاهرة -79"

وفى "السكرية" يرتبط أحمد شوكت بعلاقة وثيقة مع استاذ علم الاجتماع الإنجليزى مستر فورستر، وهو الذي ينصح تلميذه بالتقدم للماجستير بعد حصوله على الليسانس."السكرية-218"

⁽³⁾ كان نجيب محفوظ مرشحاً لبعثة دراسية إلى فرنسا، وتدخلت السراى لاستبعاده ظنا أنه قبطى، والعداء معروف بين السراى والأقباط لانسهم عمد حزب الوفد. التفاصيل في العدد الخاص الدذى اصدرته مجلة "الهلال" المصرية عن نجيب محفوظ، عدد فبراير 197.، ص97.

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

"المجد" الذى يفكر فيه محجوب مادى صرف، وليس أدل على ذلك من استدعائه لمأمون رضوان بعد ترقيته إلى الدرجة الرابعة مديراً لمكتب الوزير بمرتب 25 جنيهاً فى الشهر: مأمون رضوان نفسه لن يزيد مرتبه بعد عودته من البعثة – بعد ثمانية أعوام – على مرتبه هذا!. "نفسه – 177"

لا يفكر محجوب فى كيفية وصوله إلى المنصب الكبير خلال شهور قليلة، ولا يفكر فى وظيفة مأمون الجامعية وجلالها، فغاية ما يشغله هو المرتب الذى يحصل عليه كل منهما!.

لا تنعقد البطولة للأستاذ الجامعي في أي من روايات نجيب محفوظ، بل لا توجد في عالمه كله شخصية أستاذ جامعي تلعب دوراً مهما ومؤثراً.

وهنا تظهر أهمية "المرايا".

"المرايا" سيرة ذاتية روائية يقدم فيها نجيب محفوظ صوراً فنية عن خمسة وخمسين شخصية، وقد نشرت الرواية - لأول مرة - مسلسلة في مجلة " الإذاعة والتلفزيون " في الفترة من أول مايو سنة 1971 إلى السادس عشر من أكتوبر في العام نفسه، وظهرت طبعتها الأولى سنة 1972.

و"المرايا" تجربة روائية جديرة بالاهتمام، وقد انقسم النقاد حولها إلى درجة التناقض.

ناقد كبير مثل الدكتور صبرى حافظ يذهب إلى أنها تقدم صورة بالغة القتامة والكآبة لعدد كبير من كتاب مصر ومثقفيها، وصورة متضخمة لذات تحاول أن تعلى من شأنها عن طريق الزراية بالآخرين والنيل منهم وتشويههم.

ويحتد الدكتور صبرى إلى الدرجة التى يرى فيها أن نجيب محفوظ برجوازى صغير حاقد مغرور تصور له أوهامه أن كل النساء ساقطات، وكل الرجال زائفون، وأنه هو الوحيد الناصع اليد الطاهر الذيل، الناجح فى غزواته النسائية والثقافية على السواء (4).

أما الناقد الكبير رجاء النقاش، وهو الذى نشر الرواية مسلسلة فى فترة رئاسته لتحرير مجلة "الإذاعة والتلفزيون "، فيرى أن "المرايا" عمل أدبى جميل وصادق، يروى فيها نجيب جانباً من تجاربه الخاصة مع شخصيات عرفها وشخصيات أخرى تخيلها، ونجيب ينقد فيها بعض الأوضاع والنماذج الإنسانية الشائعة في المجتمع (5).

غضب صبرى حافظ مرده إلى أسباب سياسية مؤقتة، وحماس رجاء النقاش موضوعى أدبى. وحقيقة الأمر أن الشخصيات التى يعرض لها نجيب محفوظ تمثل خليطاً يعبر عن تنوع الحياة الإنسانية الصاخبة، فنجد أساتذة الجامعة وضباط الشرطة والجيش والعاطلين بلا عمل والطلبة والأطباء والموظفين والكتاب والصحفيين والتجار والفنانين والمحامين وتجار المخدرات والسماسرة والقوادين وسعاة المسالح الحكومية وربات البيوت والسماكين. وعلى خلاف الأعمال السابقة واللاحقة لنجيب محفوظ، تنفرد "المرايسا" باهتمام ملحوظ بشخصية أستاذ الجامعة. سبعه من شخوص الرواية أساتذة في الجامعة او كانوا أستاذة فيها قبل انتقالهم إلى وظائف أخرى، وهذا العدد

⁽⁴⁾ د. صبرى حافظ: تزييف الوعى وتشويه التاريخ، مجلة الأقلام، بغداد، تموز 1984. ص ص55-62.

⁽⁵⁾ رجاء النقاش: في حب نجيب محفوظ، دار الشروق، القاهرة، ط1،1995،ص246.

ستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

يمثل نسبة تقترب من 13٪ من أجمالى شخصيات الرواية. والنسبة مرتفعة بمقاييس الواقع من ناحية ومن حيث اهتمام روايات نجيب محفوظ الأخرى من ناحية ثانية.

تتوقف دراستنا هذه أمام صورة أستاذ الجامعة كما تقدمها رواية "المرايا"، ونعرض لهذه الصورة من خلال سبعة فصول تتناول شخصيات:

- إبراهيم عقل "كليسة الآداب"
- زهير كامل "كليسة الآداب"
- ◄ سرور عبد الباقي "كلية الطب"
- ◙ عزمي شاكس "كليسة الآداب"
- كامــل رمــزى "كليـة التجارة"
- ماهر عبد الكريم "كليسة الآداب"
- محمود درويش "كلية الآداب"

وليست صدفة أن تحظى كلية الآداب بالنصيب الأوفر، فهى الكليـة التى تخرج فيها الروائى الكبير، وهى الكلية التى تسهم بنصيـب عظيـم فى حياتنا الأدبية والثقافية.

ومن الضرورى أن نشير إلى أن اهتمام الدراسة ينصب فى المقام الأول على الإطار الإنسانى العام لأستاذ الجامعة، ذلك انه ليس إلا واحدا من أبناء المجتمع: يخضع لقوانينه ويتأثر بتحولاته ويتفاعل مع متغيراته.

وإذا كان الإطار الزمنى لرواية "المرايا" ينتهى فى أواخر الستينيات و أوائل السبعينيات، فإن كل تغيير طرأ علسى المجتمع والجامعية

معاً فى الفترات التالية بمثابة الامتداد لا الانقطاع للدور السياسى والاجتماعى والثقافى الذى يلعبه أساتذة الجامعات المصرية فى تشكيل الواقع والتشكل به.

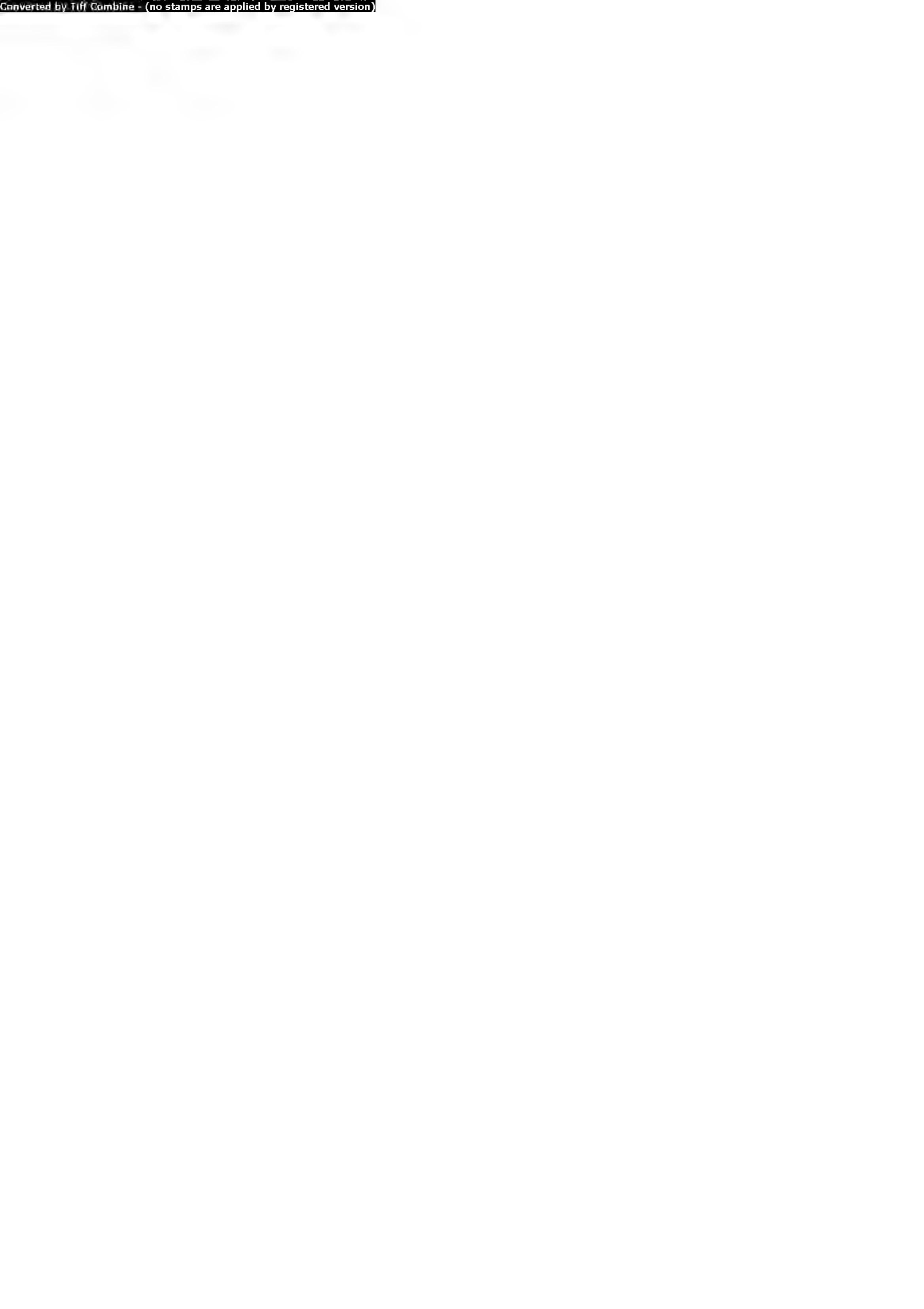
لا يزعم الباحث أن الدراسة تحيط بكل جوانب صورة الحياة الجامعية في عالم نجيب محفوظ، ولكنها تطمع في الإحاطة الشاملة بكافة أركان صورة الأستاذ الجامعي كما تقدمها "المرايا"، وهي الرواية الأكثر اهتماماً بالجامعة وأساتذتها في كل ما كتب نجيب محفوظ.

سطفى بيوسى المنيا - ديسمبر2000



الفصل الأول ٦





استاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

تبدأ معرفة الراوى بالدكتور إبراهيم عقل – قبل أن يراه – من خلال مقال نشره الأستاذ سالم جبر وأشار فيه إلى الدكتور باعتباره عقلا فذا بشر في وقت ما بثورة فكرية في حياتنا الثقافية لولا وشاية حقيرة أجهضته قبل أن يقف على قدميه، رددها شخص لا خلاق له زاعما بأنه طعن في الإسلام ضمن رسالة الدكتوراه التي قدمها للسوربون.

وبسبب هذه التهمة تعرض الدكتور إبراهيم لهجوم عنيف من بعض الصحف والمجلات، وطالب المهاجمون بفصله من الجامعة. ولأن الدكتور ليس ذا طبيعة مقاتلة، ولأنه في حاجة إلى وظيفته، فقد تحول إلى حالة دفاعية لإخماد الفتنة.

أزمة الأستاذ الجامعي إبراهيم عقل لا تكمن في علمه أو في عقله، ولكنها في المناخ الاجتماعي الذي لا يتسع لحرية الفكر وفي الشخصية المهتزة التي لا تستطيع المقاومة وتؤثر السلامة والانسحاب والانحناء الدائم ____ إبر اهيم عقـــل

للعاصفة. ولعل أفضل ما يجسد هذه المعادلة ما يقوله - أيضاً - سالم جبر عن الدكتور إبراهيم كضحية لمجتمع فاسد، وإن لم يغفر له انهزاميته.

والدكتور ماهر عبد الكريم، الذى يحظى باحترام من الـراوى يصل إلى درجة تقترب من التقديس، يقدم شهادة إيجابية عن الدكتور عقل - زميله في السوربون - ويقول عنه:

- إنه عقلية فذة، وكان يبهرنا بذكائه ونحن في السوربون.
- وهو الوحيد في مصر الذي يتمتع بعقل فلسفي، بالنظرة الشاملة للأشياء.
- لم يُخلق كاتباً، ولكنه محدث موهوب، نوع من سقراط، خص أصدقاءه الحميمين بزبدة أفكاره. وطرح أيسر ما عنده على الناس.

عقلية فذة وذكاء خارق وعقل فلسفى ونظرة شاملة، ولكن ما يفسد ذلك كله هو الانعزال عن الناس والتقوقع على الذات والعجز عن التواصل. إنه — كما يقول الراوى مقترباً من الموضوعية — أستاذ بلا تلاميذ ولا مريدين.

كانت الأزمة التى تعرض لها الدكتور عقل فى بداية حياته الجامعية فوق قدرته على التحمل، وعلى الرغم من تراجعه ومهادنته فإن سمعته" بقيت عند الكثيرين سيئة ومريبة تأثراً بالاتهام القديم. بعد سنوات من العاصفة يتعرف الراوى – فى مطلع حياته الوظيفية – على واحد من غلاة المحافظين هو طنطاوى إسماعيل، وسرعان ما يسأل الوافد الجديد من الجامعة:

-- أكنت من تلاميذ الدكتور إبراهيم عقل؟

ويجيب الراوى باعتزاز:

- نعم ومن تلاميذ الدكتور ماهر عبد الكريم أيضاً.

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

فيقول طنطاوى بصوت ذى رنة نحاسية:

- ماهر عبد الكريم رجل عظيم أما إبراهيم عقل فوغد كافر من ذيول المبشرين!

ويرد الراوى وهو لا يجد حافزا للدفاع عن الرجل:

- يخيل إلى أنه اعتزل الفكر ولم يبق من أستاذيته إلا شبح ...

فقال بحدة:

- لم يبق منه إلا مرتزق من المرتزقة!.

المؤكد إن طنطاوى إسماعيل – الذى لا يعرف اللغة الفرنسية – لم يطلع على رسالة الدكتوراه التى اتسهم إبراهيم عقل بسببها، ولكنه – من وحى الحملة العاتية القديمة – لا يجد حرجا فى وصفه بأنه وغد كافر من ذيول المبشرين!.

كيف انتهى الحال بالعقلية الفندة التى بشرت بثورة فكرية فى الحياة الثقافية المصرية، وأى مصير آل إليه من كان يبهر زملاءه فى السوربون بذكائه ونظرته الشاملة؟!.

لما التحق الراوى بالجامعة عام 1930 كان إبراهيم عقل أستاذاً مساعدا بها، عديم الاهتمام بالحياة الفكرية، ومحاضراته تخلو من الدسامة وأقرب إلى التوجيهات العامة.

وفى سياق آخر يعترف الراوى بأنه لا يكن لأستاذه احتراماً يذكر: لعزوفه عن التأليف، ولعدم إخلاصه فى عمله. وما أعجبنى فيه إلا منظره وخفة روحه وسخريته الموهة بالتفلسف. إبراهيم عقسل

ويتحول الموقف السلبى اللامبالى إلى عداء كامل لا هوادة فيه عندما يمارس الدكتور إبراهيم فعلا سياسيا يوصف بالانتهازية من تلامينه الوفديين، وفي مقدمتهم الراوى الذى لا يَخفى انتماؤه الوفدى(1)

تولى الدكتور إبراهيم عقل منصباً جامعياً كبيراً، ولكنه اغتال في سبيله جميع مثله العليا. ففي ظل عداء شعبى عارم للملك فؤاد، نشر الدكتور مقالة في الأهرام يدعو فيها للولاء لصاحب العرش وينوه بأيادى أسرته على نهضة البلاد وبخاصة محمد على و إسماعيل.

هل كان هذا المقال هو "الثمن" المذى دفعه الدكتور ليرتقى به إلى المنصب الكبير الخطير غير المحدد؟!. رؤية نجيب محفوظ الوفدية تلعب دوراً مهما فى الرأى العنيف المتشدد، والرؤية نفسها تلون تقديم الموقف الطلابى من إبراهيم عقل وتخيل مشاعره الداخلية بعد الموقف السياسى الموصوف بالانتهازية: وظل الدكتور يخطر بيننا، متظاهراً بالثبات والشجاعة، يطالعنا بنظرات متحدية تخفى فى أعماقها إحساسا بالهزيمة والذنب. وكنا نلقاه بالاحترام اللائق بمركزه على حين نضمر له الاستهانة والسخرية...

وكان لخفة روحه ومناوراته البهلوانية خليقاً بأن يتبدى لنا مهرجاً أو دجالا لا شريرا أو سفاكا للدماء أو عدوا حقيقياً للشعب...

"يتظاهر" بالثبات والشجاعة، و"يخفى" إحساساً بالهزيمة والذنب. الاحترام الظاهرى هو ما يلقاه من تلاميذه، ولكن أعماقهم تنطوى على

⁽¹⁾ عن وفدية نجيب محفوظ راجع دراستنا: "الرؤية الوفدية في ادب نجيب محفوظ"، وقد نشرت مسلسلة في العدد الأسبوعي من جريدة" الوفد" خلال شهرى نوفمبر وديسمبر 1991.

الاستهانة والسخرية. إنه لا يرقى إلى مرتبة الأعداء الحقيقيين، وغاية ما يصل إليه أن يكون مهرجاً أو دجالاً!.

لم يكن إبراهيم عقل قبل موقفه هذا ممن يحظون باحترام طلابه، ولكن السلوك الانتهازى الذى اتخذه حول العداء من دائرة السلبية النابعة من تقدير وتقييم عمله الجامعي كأستاذ إلى السلبية المرتبطة بخلل في الموقف الوطئي.

فى اليوم الأخير للدراسة يجتمع الدكتور عقل بطلبة الليسانس فى القسم الذى يرأسه، ويصارحهم بكل ما يعتمل فى أعماقه. كأنما يدافع الرجل عن نفسه عندما يقول:

المسألة أننى وجدت أناسا يخطبون وأناسا يعملون فاخترت الانضمام
 إلى العاملين. وكلنا في النهاية مصريون.

وإذ بيعترض الطالب اسحق بقطر على رأى أستاذه قائلاً:

- إن من يخطب مطالباً بالاستقلال والدستور خير ممن يبنى الكورنيش ويسفك الدماء⁽²⁾...

⁽²⁾ إسماعيل صدقى هو المقصود بمن "يبنى الكورنيش ويسفك الدماء"، و عندما يتقابل الراوى مع الدكتور عقل في الإسكندرية ويعود الدكتور الي الحديث عن بناء الكورنيش الذي سيغير وجه الإسكندرية، يعقب الراوى في سخط و غضب:

⁻ ليس بالكورنيش وحده يحيا الإنسان-

اسماعيل صدقى، الذى تحالف الدكتور عقل مع حكومته، هو الأكسشر تعبيرا عن الشر و العداء للشعب فى عالم نجيب محفوظ، لمزيد من التفاصيل راجع در استنا" معجم أعلام نجيب محفوظ، در اسة تحليلية"، دار الأحمدى، ط1998، ص ص 48-54.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابراهيم عقسل

لا يعلق الدكتور إلا بقوله:

- ليس كالسياسة مفسدة للعقل...

وعندما ينتقل الدكتور إبراهيم إلى الحديث مع طلابه عن المستقبل الذى يبدو لهم متجهما، فإنه يبرهن على أنه لا يعيش فى الواقع الذى يكتوون بنيرانه. فهو يبشرهم بطريق الحقيقة والقيم، ويدعوهم إلى التخفيف من غلواء الطموح الدنيوى والرضا من الدنيا بما تجود به، أما الشوق للحقيقة فلا ترسموا له حداً!.

وكأنما يتفنن الدكتور في تعذيب طلابه عندما يقول لهم:

- إن الجلوس تحت شجرة في يوم صاف خير من امتلاك عزبة.

وخلال تعاقب هذه النصائح الفلسفية المطلقة، يفكر الطلبة في أستاذهم على نحو مختلف. وبعد مغادرتهم للكلية يستبقون إلى نعته بكل قبيح:

- الوغد.
- المهوج.
- الدجال.

ليست المسألة في الموقف السياسي الذي يبهمل الأغلبية الشعبية وينحاز إلى الأقلية المتسلطة فحسب، ولكنها أيضاً في الرؤية الاجتماعية الانعزالية القاصرة. أي معنى للتبشير بالحقيقة والقيم في ظل واقع ضاغط متجهم كئيب لا يتيح للروح أن تزدهر وترضي؟!. وقد يكون إبراهيم عقل متوافقا مع نفسه وصادقا فيما يدعو إليه ويبشر به، ولكنه لا يرى تفاعلات الحياة ومعاناة الأحياء الذين يكابدون وينفسون عن غضبهم الدفين بالاستباق إلى نعته بكل قبيح من الصفات!.

وفى هذا الإطار بمكننا أن نفهم السر فى انحياز الراوى إلى زميله عجلان ثابت، الذى مُفصل من الجامعة بعد اتهامه بسرقة طربوش، ويراه أفضل من الدكتور إبراهيم عقل.

إذا كان عجلان لصا مدفوعا إلى السرقة بالفقر والاحتياج، فإن الدكتور إبراهيم - على نحو ما - سارق لأحلام تلاميذه دون مبرر يشفع له!.

ومن المنطقى أن يعتمد الدكتور عقل فى عمله الإدارى بالجامعة على الموظفين "المشبوهين" والمكروهين فى الأوساط الطلابية مثل عدلى المؤذن: كانت علاقته بالدكتور إبراهيم عقل وثيقة، ولما ولى الدكتور منصبه الخطير نتيجة لتقربه من السراى اعتمد فى إدارته على عدلى المؤذن. وهو الذى قدمه إلى أحد الوزراء قبيل الحرب العظمى الثانية فنقله الوزير إلى وزارته مفسحاً لطموحه مجالا جديداً أحفل بالفرص من إدارة الجامعة.

وعدلى هذا مكروه كإبليس، وعند موته يتخلى الموظفون عن التقاليد المرعية مظهرين الشماتة والفرح، وكانت جنازته فقيرة لم يشارك فيها من ذوى الشأن إلا إبراهيم عقل نفسه بعد أن ترك الجامعة وتفرغ للدروشة!.

ومن المنطقى أيضا أن يظهر الدكتور عقل -- الإدارى -- كأداة إرهاب وتخويف للطلاب، فإذا يحتك بعضهم بزميلهم محمود درويش متوهمين أنه عميل لأجهزة الأمن، يستدعيهم إبراهيم عقل إلى مكتبه ويهددهم -- إذا عادوا -- بإبلاغ أمرهم إلى الجهات المختصة.

ومن المنطقى كذلك أن يبدو الدكتور عقل منحازاً إلى القيم التقليدية والصرامة الأخلاقية كما يتجلى في موقفه من الطالبة الفاتنة سعاد وهبى التى أثارت بجمالها وخفتها وتحررها مشاعر الطلاب واهتمامهم: وسرت عدوى

إبراهيم عقسل

اهتمامهم إلى الدكتور إبراهيم عقل الذى يفرض بقامته المديدة رعاية أبوية على الطلبة والمثل العليا معاً. وانتهز فرصة اضطراب قاعة المحاضرات لارتجاج الثديين النافرين وجعل يسلط سحر عينيه الزرقاوين على الجميع حتى ثابوا إلى الرشد والسكينة، ثم قال:

- يجب أن يوجد فرق هائل بين قاعة المحاضرات بجامعتنا وبين صالة بديعة!.

فضجت القاعة بالضحك في غير موضعه..

ثم وهو يهز رأسه بطربوشه الطويل:

- تذكروا أننا جميعاً - نساء ورجالاً - هدف لمجهر الناقدين وأن جمهرة منهم لم تسلم بعد بمبدأ اختلاط الجنسين في الجامعة، بل بمبدأ تعليم الفتاة تعليماً عالياً..

وفى نهاية المحاضرة استدعى سعاد وهبى لمقابلته فى حجرته. وخمنا موضوع الحديث وتنبأنا بنتيجته المحتومة. وكثيرون شعروا بالأسف لحرمانهم الوشيك من الإثارة اليومية الفاتنة. وغادرت سعاد وهبى حجرة الدكتور متجهمة الوجه. ولما رأت جموع المنتظريان فى الخارج قالت بحدة وبصوت مسموع متحد:

- لن أسمح لأحد بمصادرة حريتي الشخصية..

وأصرت على التمتع بحريتها حتى فوجئنا بصدور أمر بفصلها من الكلية!

كيف يمكن تقييم موقف الدكتور عقل من سعاد وهبى؟!. من الممكن أن يكون التوقف عند الوجه الأخلاقي المتزمت والتدخل السافر في "الحرية

الشخصية" لسعاد، ومن المكن أن تكون الأهمية للرؤية الموضوعية التى يطرحها الرجل عن المجتمع الذى لم يقتنع بعد باختلاط الجنسين وحق الفتاة في التعليم العالى.

الرغبة في إدانة إبراهيم عقل هي التي تعلى من شأن "الاضطهاد" الذي تتعرض له سعاد، أما النظرة المعتدلة فهي التي تجد في منطق الدكتور ما يستحق الاهتمام. لقد دفع شخصياً ثمن "استفزاز" المجتمع وتقاليده ومشاعره، ومن هنا حرصه - الذي قد يوصف بالرجعية والتزمت - على الاعتدال والمهادئة والتطور البطيء المأمون.

قد يكون لتلاميذ إبراهيم عقل — ومنهم الراوى — رأيهم الحاد فى محاضرات وحيوية أستاذهم ، وقد يكون لهم رأيهم المعارض لما يرونه انتهازية سياسية فى سلوكه وممارساته ، ولكسن هذا لا ينفى أن للرجل من الأفكار والرؤى ما يستحق التأمل والتحليل.

إذا كان الراوى يأخذ على أستاذه عزوفه عن تأليف الكتب، فإن لإبراهيم عقل منطقه الذى لا يخلو من الوجاهة. وثمة حوار مهم يبدأ بسؤال من الراوى لأستاذه:

-- لم لم تؤلف كتابا يا دكتور؟

ويجيب الدكتور بصوته الجهورى وهو يرمى سائله بنظرة متعالية:

- أتظن أن عالم الكتب في حاجة إلى مزيد؟

وجعل يهز رأسه الكبير فوق قامته المديدة ثم قال:

- لو فرشنا بالكتب سطح الأرض لغطته مرتين.

إبراهيم عقل

ثم بامتعاض وازدراء:

- ومع ذلك فلو عددنا الكتب المتضمنة جديداً من الفكر لما غطت سطح زقاق.

ليس المقياس عنده أن تؤلف كتاباً، فما أكثر الكتب عديمة الجدوى، ولكن المهم هو الجديد الجاد الدى يضيف. ولعل فى امتناعه عن التأليف - الذى يراه تلاميذه سلبية وقصوراً - ما يعبر عن رؤية متماسكة ذات جذور.

وإذا كان الدكتور عقل متهماً في ممارساته السياسية بالانتهازية والوصولية، فإنه يؤمن بجملة من الأفكار التي تستحق الاحترام وتنم عن توهج وعمق إذا تم التعامل معها بموضوعية وإنصاف بعيداً عن التعصب والأحكام سابقة التجهيز.

من الآراء السياسية المهمة للدكتور عقل، قوله معقباً على الانقلاب الدستورى لإسماعيل صدقى:

- إن حياتنا الدستورية مكسب ولكنها في الوقت نفسه فخ. ويشرح تلك المقولة موضحاً:

- انحرف الجهاد الوطنى عن غايته الأولى، غرقنا فى معاركنا الحزبية، ولدى كل انقلاب يحدث رد فعل فظيع فى العلاقات والأخلاق، ويوماً بعد يوم يتفتت البناء الشامخ الذى ورثناه عن ثورة 1919.

وفي سياق آخر يقول إن الاستقلال الحقيقي في المثل العليا وبنك مصر.

ومن المقولات المهمة التى تتكرر كثيراً على لسان الدكتور عقىل: لا يوجد مثل السياسة مفسدة للتفكير البشرى.

من المقتبسات السابقة يتشكل فكر سياسى متماسك للدكتور عقل، وعلى ضوئه يمكن استيعاب الموقف الموصوف بالانتهازية الذى اتخذه.

السياسة بشكلها العاطفى الغوغائى مفسدة للتفكير، والاستقلال الحقيقى عنده يتمثل فى الاقتصاد القوى "بنك مصر" والقيام الأخلاقية "المثل العليا"، أما الواقع السياسى المصرى فمتهرئ منحرف عن رسالة ثورة 1919 التى ينتمى إليها الجميع أو يدعون الانتماء إليها. ولذلك كله قد يكون دفاعه مبرراً عندما يميز بين من يخطبون ومن يعملون، وعندما يختار الانضمام إلى من يتصور أنهم يعملون!. ولكن السياسة – فى النهاياة – مفسدة كما يعلق على ما يقوله اسحق بقطر!.

وقد يكون إبراهيم عقل منظور طلبته محافظاً رجعياً متزمتاً، ولكنه متوافق مع نفسه في تبشيره بالمثل العليا التي يعتبرها طوق النجاة والخلاص. ليس المهم أن نوافقه على دعوته، فالمهم أن نتعامل معها على أنها صادرة عن إيمان واقتناع.

فى محاضراته عن الأخلاق لم يكن الدكتور إبراهيم يكف عن المطالبة بالمثل العليا، وهو يلح فى ذلك إلى الدرجة التى تدفع أحد تلاميذه إلى أن يسميه ساخراً "دكتور مثل عليا". وهذا المطلب لا يرتبط عنده بالعقيدة الدينية: أرجو ألا تعتبروا المثل العليا نتيجة لعقيدة دينية، اعتبروها إذا شئتم المنبع الذى تتدفق منه العقيدة نفسها.

"المثل العليا" التى ينادى بها إبراهيم عقل تختلف جذرياً عن الأفكار المادية التى يبشر بها مفكر مثل سالم جبر، و إذ يجد فى تلميذه الراوى ميلا لترديد بعض آراء سالم الثورية المتطرفة، فإنه يحذره من الفلسفة إبراهيم عقــل

الكاذبة. ويرد الراوى مأخوذاً بما يسمع:

- الحق أنى أول ما سمعت عنكم كان لدى قراءة مقال له يدافع فيه عنكم! فقال ساخراً:

- لم يكن دفاعا ولكن كان إحراجاً. فهو لا يرضى عن مفكر إلا إذا اشهر الحاده أو فوضويته..

إنه ليس ملحداً — كما اتهم — وليس فوضويا، وعنده نظرية خاصة يجابه بها سالم جبر عندما يشكو من احتقار الفرنسيين لمصر بسبب سوء حال الشعب: إنك تزور في فرنسا أوساطا متطرفة لعلها تضمر نفس الاحتقار لفرنسا أيضا، على أن الإنسان لا تتقرر حاله الحضارية بما يملك ولكن بما ينبض به فكره وقلبه، وأنا شخصياً أعتبر الفقير الهندى أجل إنسانية من فورد أو روكفلر!.

واحتد سالم جبر فاتهمه بالمثالية الرجعية، كمسا اتهمه بالصوفية التي يعدها مسئولة عن تأخر الشرق.

إبراهيم عقل إذن متهم من المحافظين بالكفر والتعلق بأذيال البشرين، وهو فى الوقت نفسه متهم من الثوريين بالمثالية الرجعية والصوفية!. الفقير الهندى عنده أجل إنسانية من أصحاب المليارات، وهو القائل من قبل أن الجلوس تحت شجرة فى يوم صاف خير من امتلاك عزبة!. هذه هى أفكاره بمعزل عن الاتفاق أو الاختلاف معها، وهى أفكار راسخة فى أعماقه ولا علاقة لها بالانتهازية والرغبة فى الصعود الوظيفى.

السياسة مفسدة، ولا ينبغي لها أن تهمل وتهدد الجانب الإنساني

الموجود بالضرورة فى أى وكل إنسان. وفى هذا المستوى يتجلى إبراهيم عقل أبا عطوفاً حنونا كما عاين ذلك الراوى نفسه فى لقاء مع أستاذه بالإسكندرية: ولاحظت بسرور غرامه الأبوى بابنيه وملاطفاته لهما مما دعا زوجه لإعلان استنكارها لتدليله لهما. واستمالنى لأول مرة بعواطفه الأبوية.

وكان هذان الابنان نقطة تحول في حياة إبراهيم عقل: فقد ابنيه الوحيدين في وباء الكوليرا الذي اجتاح البلاد عام 1947.

وسار الرجل وراء النعشين بقامته الطويلة وقد تهدلت عضلات وجهه وغامت عيناه بظلمة كأنها صورة ناطقة لليأس الأعمى. ولم يهتم بشىء مما يدور حوله، ولكن عندما تقدم الدكتور ماهر عبد الكريم لتعزيته خفض جفنيه على دمع تفجر رغم إصراره على الظهور بمظهر الثبات والصبر.

وبعد سنوات طويلة من موت الابنين وموت الدكتور عقل نفسه، يقدم ضابط البوليس السياسي المتقاعد أحمد قدرى تفسيراً جديداً لموتهما. فهو يقول لقريبه الراوى:

- رئيسي رحمه الله همس لي يوما في مجلس صداقة حميمة بأنهما قتلا!
 - قتلا!
 - اضبط أعصابك، ذاك تاريخ مضى وانقضى..
 - ولكن كيف قتلا ومن الذي قتلهما؟!
- لا شئ مؤكد، صدقنى لا شئ مؤكد، حتى رئيسى نفسه لم يكن لديه أكثر من همس، تسلل إليه خبر عن غرام وامرأة هامة وشخص من رجال الملك وجريمة قتل في بيت خلوى بالطريق الصحراوى..

إبر اهيم عقـــا

ماتا بالكوليرا كما هو الشائع المعلن أم قتسلا بمعرفة السراى ورجالها؟! المهم أنهما ماتسا وأماتسا معسهما صمسود الأب وقدرتسه علسى المقاومة.

بعد الموت المأسوى الفاجع تتغير شخصية الدكتور ويصل إلى محطة الدروشة والانعزال الكامل عن العالم، وهذا التغيير يلاحظه – مبكراً – صديق العمر الدكتور ماهر عبد الكريم الذى لا يخفى قلقه على صديقه الأثير وينقل مخاوفه إلى تلميذه الراوى: جعل يقول بنبرة متهدجة إن الموت جميل، وأنه مظلوم وأنه لولاه لما كانت للحياة قيمة.

وصح ما توقعه الدكتور ماهر وتخوف منه، فقد تبدلت أحوال الدكتور إبراهيم في الأعوام التالية للحادث: قيل إنه أصبح يرى كثيراً في جامع الحسين. وأنه يمضى الساعات متربعاً أمام المقام. وفي كلمة انه يتدروش ويسلم للإيمان تسليماً بلا قيد ولا شرط.

وفى عام 1950 تسرك الدكتسور إبراهيسم عقبل الخدمة لبلوغه السن القانونية فتفرغ تماما للدروشة.

هذه الدروشة تمنعه عن متابعة مسيرة الراوى عندما تقابلا مصادفة سنة 1953 معتذراً بأنه لا يقرأ، وهذه الدروشة هى التى تبعده عن متابعة الحياة السياسية في مصر بعد ثورة 1952مكتفياً بالقول الذي يعكسس زهذه: هبوط صعود، موت بعث، مدنى عسكرى: فلتسر الدنيا في طريقها أما أنا فإنى أستعد لرحلة أخرى.

ويموت الدكتور إبراهيم عقل سنة 1957.

لقد تحولت دروشة إبراهيم عقل في سنواته الأخيرة إلى نموذج يستدعي ويضرب به المثل.

بعد حريق القاهرة سنة 1952 وإقالة حكومة الوفد، لا يجد الدكتور زهير كامل ما يعبر به عن إحساسه بالمناخ السائد إلا أن يقول: ما أشبه حالنا السياسي بالدكتور إبراهيم عقل الذي بدأ باحثاً نابها وانتهى بالدروشة.

وبعد أن قضت ثورة يوليو على الوفد وجيل كامل من السياسيين الذين لم تتسع لهم الحياة الجديدة، يعود الدكتور زهير إلى تذكر الدكتور إبراهيم عقل وحالة الدروشة التى أصابته:

- على ذلك الجيل من السياسيين أن يتخذ من أستاذنا القديم إبراهيم عقل مثلا يُحتذى..

ويدهش الراوى للاستدعاء المباغت فيقول معقباً:

- الدكتور إبراهيم عقل يعانى حالة دروشة كاملة وقد لمست ذلك بنفسى في لقاء عابر معه بحى سيدنا الحسين!

ولم يكن الأمر خافيا على زهير كامل وهو يضرب المثل:

هذا ما أعنيه تماما، فالدروشة هنا أسلوب لمواجهة الكوليرا التى
 قضت على ابنيه..

إبراهيم عقل لا يملك إلا الدروشة سلاحا لمواجهة الموت والكوليرا، وعلى الجيل الوفدى المهزوم الذى لا يملك القوة الكافية لمواجهة ضباط يوليو أن يلجأ إلى الدروشة السياسية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه!.

إبراهيم عقسل

لم يخلق إبراهيم عقل كاتباً كما يقول عنه صديقه ماهر عبد الكريم، وهو – بتعبير الراوى – أستاذ بلا تلاميذ ولا مريدين. السؤال الذى يبدو طرحه ضرورياً: هل تبخر إبراهيم عقل بعد موته ولم يبق منه شئ؟!. الإجابة نجدها في الأثر الوحيد الذى خلفه بعد موته، إذ عثر ابن أخيه على مخطوط له لترجمة غاية في الجمال لديوان "أزهار الشر" لبودلير لم يعرف بالضبط تاريخ ترجمته. وهكذا بقى اسمه في المكتبة العربية مقرونا باسم بودلير على ديوان "أزهار الشر".

أهى صدفة أن تكون الترجمة الوحيدة لإبراهيم عقل هي ديوان "أزهار الشر" للشاعر الفرنسي الرجيم بودلير؟!.

فى السنة التى مات فيها إبراهيم عقل – 1957 – كان محمد أمين حسونة قد انتهى من ترجمة "أزهار الشر" إلى اللغة العربية (3)، ولا يتسع المجال هنا للحديث عن شعر بودلير وما فيه من رؤى فكرية وقيم جمالية (4)، ولكن الالتفات ضرورى إلى أن شعره يمثل الصراع بين الخير والشر، بين قدرة الإنسان وفكرة العدم الماثلة أمامه.

وإذا نحينا بودلير وديوانه جانباً، فإن حياة إبراهيم عقل تمثل بدورها صراعاً بين الخير والشر، بين قدرة الإنسان المحدودة وفكرة العدم التى تطارده وتهدده!.

⁽³⁾ أعيد نشر ترجمة حسونة في سلسلة "أفاق الترجمة"، العدد الثامن، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، فبراير 1996.

⁽⁴⁾ راجع - بالعربية - على سبيل المثال: عبد الرحمن صدقى: الشاعر الرجيم بودلير، دار المعارف، سلسلة اقرأ، العدد السابع، ط2، د.ت.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الناني ٦





لبيس مثل الدكتور زهير كامل في التعبير عن الفساد والانتهازية والسلوك المعوج المسيطر على أفعال الشخصية التي عملت فترة طويلة في الجامعة قبل أن تتفرغ للمتاجرة في السياسة والنقد الأدبى مقدمة مثلا بالغ الرداءة للانحطاط والإسفاف.

عندما التحق الراوى بالجامعة كان زهير كامل معيداً بقسم اللغة العربية تمهيداً لإرساله في بعثة إلى فرنسا: وسمعنا عنه ثناء طيباً من الدكتورين ماهر عبد الكريم وإبراهيم عقل فقال الأخير عنه مرة:

- إنه مثال للفلاح إذا نبغ.

وحدثني رضا حمادة عنه فقال:

- عرفته في بيت الأمة خلال اجتماعات الطلبة وهو من سمنود ويعرف مصطفى النحاس معرفة شخصية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زهير كامها

شاب ناجح علميا وينتمى إلى حزب الأغلبية الشعبية، وهو فى الجامعة والسياسة معا يبشر بمستقبل طيب كما تدل على ذلك شهادة أستاذه إبراهيم عقل ومعرفته الشخصية بالزعيم الجليل مصطفى النحاس. البداية تنبئ بالخير، والرحلة تستمر فى استواء لا نشاز فيه: وسافر فى البعثة عام 1932 ثم رجع دكتوراً عام 1939 فعين مدرس"ب" بهيئة التدريس الجامعية. وفيما بين تاريخ تعيينه وعام 1950 تركز نشاطه الفكرى فى الجامعة والتأليف، فأصدر كتبه المعروفة عن نظريات النقد العامة، ونقاد من الشرق والخرب، ودراساته عن شكسبير وراسين وبودلير واليوت والشعراء الأندلسيين. وكان يتردد على صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فتوطدت بيئنا صداقة متينة، وتزوج فى أثناء الحرب من فتاة يونانية كانت تعمل فى مصل فينوس فأنجب منها ولدين وبنتاً. وكان أستاذا جامعياً بالمعنى الدقيق، فينوس فأنجب منها ولدين وبنتاً. وكان أستاذا جامعياً بالمعنى الدقيق، يكرس حياته للبحوث الأكاديمية، ولا حديث له خارج مضامينها، فلم أعرف له اهتماماً عاما آخر. وحاولت أحيانا أن أستشف فيه الطالب الوفدى القديم فلم أفلح.

تغير منطقى طفيف ينم عن التطور والتقدم لا الانقلاب والتراجع. وليست كتبه التى تعكس نشاطه، وانكبابه على العمل الجامعي بإخلاص، والشروع في بناء اسرة؛ ليس هذا كله إلا بمثابة الامتداد لبدايته. بل إن اعتزاله للسياسة وابتعاده عن الوفد يبدو مبرراً وطبيعياً لأنسه قد لا يستطيع الجمع بين العلم والسياسة.

ينتهى التوافق سنة 1950 لتبدأ حياة جديدة مختلفة جذرياً عما كان: وفي عام 1950 فاجأنا بما لم نتوقع أبدا. فرشح نفسه على مبادئ الوفد

في إحدى دوائر القاهرة وفاز بأغلبية ساحقة، وأثار سلوكه تساؤلات كثيرة ولكن الدكتور ماهر عبد الكريم قال رغم تحفظه الشديد:

- إنه قرار يستحق الأسف.

ما الذى يدفع أستاذا جامعياً ناجحاً إلى المغامرة بالوظيفة الجامعية المحترمة المضمونة في سبيل منصب نيابي لا يمنح إلا مكافأة ضئيلة متواضعة لا ضمان لاستمرارها ؟!.

الترشيح على مبادئ الوفد ليس تهمة لوفدى قديم، والسعى إلى تمثيل الشعب ليس مدانا، بل إن اللجوء إلى كتابة المقالات السياسية فى الصحف الوفدية والدراسات النقدية التى تمثل استمرارا لتخصصه العلمى الذى هجره، هذه الكتابة ليست إلا وسيلة شريفة مشروعة على المستويين المادى والمعنوى.

الانحراف الحقيقي يتمثل في الهمسات التي تـتردد وتكشف عن سلوك لا يليق بأستاذ جامعي سابق ونائب عن حزب شعبي، و لا يجد الراوى إلا النائب الوفدي المخلص رضا حمادة ليسأله:

- ما رأيك فيما يقال عن زهير كامل؟

وتأتى الإجابة مصحوبة بامتعاض شديد:

- يقال إنه أصبح سمسار وظائف..

لا يقدم الراوى – ولا يملك – تفسيرا مقبولاً للتغيير الذى طـرأ على الدكتـور زهير وأحاله إلى كائن جديد، وغاية ما يستطيعه هو اللجوء من جديد إلى رضا حمادة ليسأل ويتساءل في حيرة:

رهير ڪامل

- ولكن هل تتصور أن زهير كامل نبذ الأستاذية في الجامعة ليمارس النهب والفساد؟

وينطوع رضا بطرح تصوره الخاص الذي لا يملك دليلا عليه:

- إنى أتصوره وغدا من البدء غير أنه كان يتحين فرصة لاستغلال مواهبه حتى وجدها في السياسة..

الراوى لا "يتصور" أن تُنبذ أستاذية الجامعة فى سبيل النهب والفساد، ورضا حمادة لا "يتصور" الرجل إلا منحرفاً منذ البدء، وكلاهما لا يقدم إلا "تصوراً" لا يمكن الركون إليه والاعتماد عليه. ذلك أن حياة الدكتور زهير حتى سنة 1950 لا تكشف عن بذور وجذور الانقلاب المباغت!.

وتبرهن الأحداث على حماقة الدكتور وتسرعه فى قراره بالتخلى عن الجامعة، فقد احترقت القاهرة وأقيلت حكومة الوفد وسقط البرلمان الذى ينتمى إليه: ولما أقيلت حكومة الوفد عقب حريق القاهرة حاول الدكتور زهير الرجوع إلى الجامعة ولكنه لم يفلح. وواصل حياته ككاتب سياسى وناقد ولكنه بات ينظر إلى المستقبل بقلق وبخاصة وأنه كان اعتاد مستوى من المعيشة الرفيعة.

فشلت محاولة العودة إلى الجامعة حيث الأمان والاستقرار، ولم يعد أمام زهير كامل إلا مواصلة العمل في السياسة والصحافة دون شعور بالثقة في المستقبل. وليس من سبيل لاستعادة الأمل إلا المراهنة على حتمية عودة الوفد، وعلى هذا الأمل يراهن زهير: ما زال الوفد أفضل الجميع وسيضطر اللك إلى استدعائه عاجلاً اتقاء لانفجار ثورة شاملة!.

ولكن أزمة زهير كسامل تنزداد تعقيداً بقيام ثورة 23 يوليو التسى

نسفت العهد القديم كله، ملكاً وحزباً ونظاماً برلمانياً: وسرعان ما وجد نفسه في مأزق لم يعمل له حسابا. أغلقت دونه أبواب السياسة والجامعة وتحير ماذا يفعل وماذا يكتب.

لم تستمر الحيرة طويلا، ففي انتهازية سافرة فاجرة خلع زهير كامل ثوبه القديم وانقلب ليهاجم حزبه متنصلاً من تاريخه القريب: انقض بمقالات من نار على الوفد مرجعا إلى فساده كل فساد نخبر في عظام الوطن. وأثارت المقالات عاصفة من الغضب المكتوم في صدور الوفديين ولكن أحدا لم يستطع أن يقلل من خطورتها لصدورها من رجل له تاريخه الجامعي الوقور فضلاً عن اشتراكه في برلمان الوفد الأخير، وتعين صحفياً في إحدى الجرائد الكبرى، وسرعان ما اعتبر قلمه من أقلام الثورة، كما عُهد إليه بتحرير صفحتها الأدبية فقاد نقد الأدب المعاصر. وبسبب مسئولياته الجديدة، وربما خجلاً من انقلابه المفاجئ تجنب إلى حين التردد على صالون الدكتور ماهر عبد الكريم. وتساءل الدكتور ماهر:

- ألم يكن الأفضل له أن يبقى في الجامعة؟

وتساءل الأستاذ رضا حمادة:

- أرأيت ماذا فعل الوغد بنفسه؟

قبل أيام من ثورة يوليو كان الدكتور زهير يؤكد أن الوفد أفضل الجميع وعودته حتمية لاتقاء الثورة، وعندما خابت المراهنة لا يجد حرجاً في اللحاق بالركب الجديد على حساب انتمائه الحزبى. كيف لا ترحب الثورة بأستاذ جامعي محسوب على الوفد وهو يتطوع بالانقلاب العنيف على النظام الذي هدمته؟!.

هكذا تتم الصفقة بين الطرفين ولا خسائر عند زهير إلا الانقلاب النفسى والانقطاع المؤقت عن عالمه القديم الذى يتمثل فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم المشفق على تلميذه والمتحسر - بعد كل ما حدث - على تركه للجامعة واختياره للسياسة المتقلبة والانتهازية الدائمة.

يتخلص زهير من خجله ويعبود إلى صالون أستاذه، ويجد القدرة على تبرير موقفه لصديقه الراوى الذى يشاركه في الانتماء الوفدى ولا يماثله في السلوك الانتهازى الفج:

- لم تكن ثمة جدوى من المقاومة، ولِمَ أقاوم ؟

وقال أيضاً:

كنت على وشك الإفلاس، ولكن لم يكن المال وحده هو الدافع فأنا
 مطمئن الضمير!.

وهنا يتساءل الراوى:

- إذن فأنت تؤمن بثورة يوليو؟

ويرد الدكتور:

- إنها حركة مباركة منعت بقوتها الذاتية اشتعال ثورة لاحـت مخالبها في الأفق!

ثم يواصل دفاعه وتبريره:

- وأعترف لك بأنى لست ثورياً، فكما لا أوافق على رجعية الإخوان فإنى لا أوافق أيضاً على ثورية الشيوعيين، وأؤمن بالإصلاح الرزين الذي

نتأثر خطاه، وهو طريق الوفد أيضا لو قيض لجناح شبابه أن ينتصر..

لا جدوى من المقاومة ولابد من الاستسلام ومسايرة العهد الجديد، ويأبى زهير كامل التسليم بأن دوافعه ذاتية انتهازية خالصة فيضيف إليها بعداً فكرياً سياسياً يجلب له راحة الضمير!. إذا لم يكن بد من سقوط الوفد والنظام القديم كله، فإن ثورة يوليو هى البديل الذى يمثل امتداداً للوفد لا انقطاعاً عنه. البدائس الأخسرى مكروهة مرفوضة: الإخوان المسلمون والشيوعيون، فكأن ثورة يوليو هى "أهون" البدائل(1)!.

وعلى الرغم من انتهازية زهير كامل التى لا تحتمل التأويل، فإن حنينه لا ينقطع للوفد. وهو يعترف للراوى بما يدور في أعماقه:

- ألم يكن الأفضل أن يتم ما تم بيد انتفاضة شعبية بقيادة شباب الوفد! ويرد الراوى:

- المهم أن يتم ما تم.

فقال بعد تأمل:

- ولكن الإنسان لا يستطيع التخلص من عقليته الخاصة ولذلك فقل على الحرية السلام!

⁽¹⁾ قد يكون مفيدا هنا أن نشير إلى أن نجيب محفوظ نفسه - في عمسوم عالمه الروائي - لا يرى تناقضا جذريا بين الوفد وشورة يوليو، والقراءة المتانية لأعماله تكشف عن شعوره بالحسرة والمرارة لغياب التعاون بين الوفد وضباط يوليو. المزيد من التفاصيل في الفصل الذي يحمل عنوان" الوفد وثورة 23 يوليو" في در استنا عن "الرؤية الوفدية في أدب نجيب محفوظ".

المير كامل

لو تم ما تم بمعرفة شباب الوفد لاستمرت الحرية، أما الضباط فقد ذهبوا بالحرية والوفد معاً!. وفي هذا السياق الذي يسبرر الانهزامية والانتهازية يمكننا أن نفهم سر استدعاء زهير كامل لأستاذه إبراهيم عقل الذي جذبته الدروشة بعد موت ابنيه، فهو يراه نموذجاً ومثلاً يُحتذى به!. الدروشة عند زهير أسلوب لمواجهة ما تستحيل مقاومته: إذا صادفتك كارثة يستحيل التغلب عليها فعليك بالدروشة، أي نوع من الدروشة، أما المقاومة غير المجدية فترمى بك إلى المعتقل!.

لم يتبخر الوفد من قلب زهير كامل على الرغم من الثورية الزائفة التى اتخذها مهنة، ويعلم الراوى أن الدكتور زهير حمل صديقاً رسالة خاصة إلى مصطفى النحاس يعتذر له فيها عما بدر منه في حقه، ويشرح له الظروف القاسية التى اكتنفت قراره.

ولا تتوقف انتهازية زهير عند الانتماء الشكلى لثورة يوليو والانقلاب الشرس على ما قبلها، فإذ تتخذ الثورة سياسة اشتراكية يتحول الليبرالى القديم فجأة إلى دراسة الاشتراكية والإيمان بها: وفى أعوام قلائل متتابعة ترجم أربعة كتب عن الاشتراكية، ثم أصدر فى النهاية مؤلفه المعروف" اشتراكية هذا الوطن".

والعلاقة الوثيقة بين الراوى وزهير كامل تقف حائلاً منيعاً أمام أى تصور عن صدق التوجه الاشتراكي الجديد لرجل موغل في إيمانه بالديموقراطية الليبرالية، وإذ يسأله الراوى ضاحكاً:

- كيف انقلبت اشتراكياً بهذه السرعة الجنونية؟

يجيب الدكتور زهير ضاحكا هو الآخر:

- الناس على دين أوطانهم.

ويعود الراوى ليسال:

- أتعتقد أنهم يصدقونك؟

فيجيب بلا تردد أو تفكير:

- لم يعد أحد يصدق أحداً.

ثم قال والضحك يعاوده:

- المهم ما تقول وما تفعل.

واجتاحته موجة من الضحك ثم قال:

- يتساءلون كثيراً عن سر ازدهار المسرح، أتدرى ما هو سر ذلك؟، السر أننا صرنا جميعاً ممثلين!.

ليست المشكلة هنا في زهير كامل وحده، ولكنها أيضاً في المناخ الذي يتيح لأمثاله أن يوجهوا ويسودوا. لقد تحول الأمر إلى مسرحية هزلية ركيكة بعى الجميع فيها أنهم يمثلون ويخدعون ويكذبون، ولا يصدق أحد أحداً.

ولم يكن زهير كامل "الناقد" مختلفا عن زهير كامل "السياسى"، فقد عانى الناقد انقلاباً شاملاً مماثلاً: فبكل استهانة مضى يتاجر بالنقد مضى يتقبل الهدايا والنقود ويقيم الفن والفنانين تبعاً لذلك. وبازدهار الحركة المسرحية والإنتاج السينمائى تضاعفت أرباحه فشيد فيللته الأنيقة بالدقى واقتنى المرسيدس.

زهير کامل

تجارة نقدية بعد التجارة السياسية، وكلا التجارتين تدر على الأستاذ الجامعى القديم أرباحا هائلة تمنحه حياة مادية يحيطها الجاه والنعيم بقدر ما تسلب من روحه كل توافق وصدق. ولأن الانهيار لا يعرف التوقف، والسقوط بلا نهاية دائما، فقد واصل الدكتور زهير مسلسل التردى والانهيار بتأليف كتاب عن "جاد أبو العلا" الذى تكشف "المرايا" في مواضع عديدة (2) منها عن تفاهته وتهافته وادعائه: ومهما يكن الثمن الذى قبضه حديدة إنه طاقم تحف عربية وألف جنيه – فقد دل على أن صاحبى تمرغ في السقوط حتى فقد إحساس الحياء الذى يصاحبه، وصدق عبده البسيوني عندما قال يوماً في حديث جرى لناسبة الرسالة المذكورة:

- هذا كتاب لا يجرؤ على تأليفه إلا مومس!

زهير كامل يمارس الدعارة الفكرية، وتاريخه الجامعي القديم مجرد حلية يستعين بها لتحقيق مزيد من النجاح في الفساد والانتهازية. وكأنما يتحدث زهير عن نفسه وأمثاله من الفاسدين عندما يقول: الزيف في الحياة منتشر كالماء والهواء وهو السر الذي يجعل من باطن الإنسان حقيقة نادرة قد تخفي عن بصيرته في الوقت الذي تتجلى فيه لأعين الجميع.

ويواصل في نبرة تسليم يائسة: بت أعتقد أن الناس أوغاد لا خلاق

⁽²⁾ يؤكد الراوى أنه لم يستطع أن يتم قراءة رواية واحدة لجاد، وأنه بــــلا موهبة تذكر "69".

ويعترف عبده البسيونى أنه كتب لجاد أغلب مسلسلته الإذاعية والتلفزيونية! 74".

أما عجلان ثابت فيصفه بالرجل الزائف"75".

وليس هذا إلا القليل من الكثير الذي يمكن أن يقال عن الرجل الذي ألف عنه الدكتور زهير رسالة كاملة!.

لهم، وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك، وإن يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذلك الاعتراف، وعلى ذلك تصبح المشكلة الأخلاقية الجديدة هي: كيف نكفل الصالح العام والسعادة البشرية في مجتمع من الأوغاد والسفلة؟!.

أهو رثاء للذات أم توصيف للواقع ؟!. أغلب الظن أن فى مقولاته ما يحقق الغرضين!. الزيف فى الحياة وفى أعماقه معاً، وليس دقيقاً أن المجتمع كله من الأوغاد والسفلة، فالصحيح أن الدكتور يتعامل من منطلقات لا أخلاقية تدفعه إلى التعميم الذى قد لا يخلو من الحكمة والصواب بقدر ما لا يخلو — فى الوقت نفسه — من التطرف والخلل.

ولا ينجو زهير كامل في حياته الشخصية من ذلك المناخ الندى يـراه سائداً ومحملاً بالزيف والفساد والانحلال.

فى العام التالى للنكسة صمم ابناه المهندسان على الهجرة إلى كندا، وهى هجرة تحزن الفلاح القابع فى أعماق الدكتور زهير: أنا فلاح، ومن طبيعة الفلاح حبه لالتصاق أبنائه به.

وتستهين ابنته بكل التقاليد والأعراف فتتزوج من شاب يوناني، أما الزوجة فتستقر بصفة نهائية في موطنها الأصلى لتنفرد الوحدة بالرجل وهو في الستين من عمره مريضاً بالسكر والضغط.

ويحاول الدكتور أن يقاوم الوحدة والمرض بالزواج من الصحفية الشابة نعمات عارف التى لا تتجاوز العشرين، ولا تتورع الزوجة عن خيانته مع الدكتور صادق عبد الحميد!.

يشرب الدكتور زهير – حتى الثمالة – من الكأس التي طالما وزع

رهير کامل،

منها على الجميع، ويزداد المرض فيلزمه الفراش متهيئاً لرحلة الموت.

حياة حافلة بالشرور والآثام إلى الدرجة التى تدفع شخصاً معتدلا مثل قدرى رزق إلى التعجب من أن رجلاً مثل رضا حمادة ورجلاً مثل زهير كامل ينبتان من أرض واحدة!.

وثمة مقارنة مماثلة بين الرجلين يعقدها الراوى: أحدهما يحتوى على طوية عفنة تتقزز منها الحشرات والآخر تستقر في أعماقه روح نبيل يستحق الفرد من أجله أن يقدس ويعبد.

وإذا كان قدرى رزق والراوى لا يصارحان الدكتور زهير بحقيقة رأيهم فيه، فإن سالم جبر لا يتورع عن المصارحة الجارحة عندما يقول له: أنت لا تنقد ولكنك تقتل القيم.



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل النالث





عندما انتقل الراوى – فى طفولته – من حيه الشعبى القديم إلى العباسية، بدأت علاقته الوثيقة مع مجموعة من الرفاق الذين صاحبوه فى رحلة العمر: جعفر خليل وسرور عبد الباقى وسيد شعير وعيد منصور ورضا حمادة وخليل زكى وشعراوى الفحام. وعند أول سؤال يطرحه سرور عبد الباقى على الوافد الجديد، يلاحظ الراوى الطفل أنه يختص بأدب يتميز به عن الآخرين.

ومن بداية التعارف إلى نهاية الرحلة الروائية، يتشبث سرور عبد الباقى بالمثالية التى نجد جذورها فى ذلك" الأدب" الذى لاحظه الراوى فى اللقاء الأول بينهما.

وفى سلوك وآراء سرور - خلال مرحلتى الطفولة والصبا - ما يكشف عن تدينه والتزامه الأخلاقي، فهو لا يجد ما يفسر به توتر العلاقة بين خليل زكى وأبيه إلا أن يقول: إن الله سلط عليه أباه كما سلط الطوفان على آل نوح!. سرور عبد الباقي

ويأبى سرور إلا أن يتحقق الانتقام الإلهى من قاتل الطلبة عشماوى جلال فيزعم أنه فقد البصر وعجز عن الحركة وأنه يتكتم ذلك حتى لا يشمت الناس به.

وعندما يغرق الراوى فى قصة حب مجنونة مع صفاء الكتاب، ينصحه سرور بما يكشف عن طبيعته العاقلة الرزينة: لا تستسلم وإلا جننت كمجنون ليلى..

هذا النطهر الأخلاقي لا ينسجم مع أفراد الشلة الأكثر تحررا، ويتمثل الخلاف في صورة مشاجرة بين سرور و"الوقح" خليل زكى. على الرغم من أن خليل لا يهتم بالغناء، فإنه يرفض ما يذهب إليه سرور من أن صوت المطربة "الجديدة" أم كلثوم أحلى من صوت منيرة المهدية، وينتهره بوقاحته المعهودة:

- لا تردد آراء أمك بيننا!

وغضب سرور عبد الباقي وصاح به:

- لا شأن لك بأمى يا قليل الأدب.

وجاء الرد في صورة لطمة، ثم اشتبكا في معركة حتى فصلنا بينهما .

وبسبب تطرف سرور في المثالية الأخلاقية كادت شلة الأصدقاء أن تنقسم وتتفرق مبكراً، فقد طالب بالتزام الأدب في السلوك والكلام:

- يا جماعة .. يجبب ألا تتردد بيننا كلمة بذيئة وأن نتعامل باحترام.

وفي الحال شخر خليل زكى وسيد شعير في وقت واحد تقريباً، فعاد سرور يقول:

- وإلا سأضطر مقاطعتكم!

ويتدخل الراوى بجزع يكشف عن حبه لسرور:

- اقترح ما تشاء ولكن لا تفكر في المقاطعة..

وقال رضا حمادة:

- كلامه يستحق التقدير!

فقال جعفر خليل:

- البذاءة في الكلام كالملح في الطعام.

وقال عيد منصور:

يا جماعة أنا لا أستطيع أن أذكر والد أحدكم او أمه إلا إذا قرنته
 بالسب المناسب.

وقال شعراوى الفحام محذراً:

- يا جماعة إذا خلت اجتماعاتنا من قلة الأدب فقل عليها السلام!

وتداولنا في الأمر باهتمام جدى ثم تم الاتفاق على مواصلة المعاملة الحرة فيما بيننا مع استثناء سرور عبد الباقي فيعامل معاملة مؤدبة خاصة.

رد الفعل الفورى من خليل وسيد على اقتراح سرور يكشف عن الاختلاف والتفاوت بين أفراد المجموعة، وجزع الراوى ينم عن الحب

سرور عبد الباقي

والتمسك بصداقة سرور، واستثناء سرور يعبر عن خصوصيته التى لا يملك الآخرون إهدارها وتجاوزها.

ومثالية سرور ليست نظرية كلامية فحسب، بل هـى سلوك عملى أيضاً. فإذا تستجيب المجموعة – بكامل أفرادها – لدعوة سيد شعير ويذهبون معه إلى حى الدعارة لأول مرة، فإنه الوحيد الذى يتخلف!

منذ البدء تتميز شخصية سرور الـذى تغلب عليـه نزعـة أخلاقيـة متطهرة فى أقواله وأفعاله، والبحث عن مكونات الشخصية يقود بالضرورة إلى أسرته وأسلوب تربيته: كان أبوه محامياً ذا شهرة ومال، وكانت أمه قوية الشخصية تحكم بيتها بسيطرة لا تقاوم يخضع لها الأب والابن والبنتان. وكانت بخيلة فيما بدا. تساوم الباعة المتجولين بـلا رحمـة، ومن أجـل مليـم واحد تلغى صفقة، وتزن مشترياتها فى ميزان خاص ابتاعته لذلك. وظهر أثر ذلك كله فى سلوك سرور بيننا بالتهذيب والأدب والاقتصاد. وكـانت علاقته بنا ذات نوع خاص، فهو لا يفارقنا، وهو لا يندمج فينا، ويتجنب مشاركتنا فى مزاحنا الطليق ونكاتنا اللاأخلاقية.

الأم الصارمة قوية الشخصية هي صاحبة الدور الأكبر في تشكيل ملامح سرور، وهي المسئولة عن سلوكه المختلف مقارنة بشلة الأصدقاء الذين يحتاجونه بقدر ما يعارضونه.

وعلى الرغم من اجتهاد سرور فى الدراسة، فان ذكاءه موضع شك عند أقرانه: كان تلميذا مجتهدا، ولكن نجاحه كان دائماً دون اجتهاده، والحق لم نكن نؤمن بذكائه!

وهو يختلف عنهم أيضا في الانصراف الكامل عن السياسة والزهد

في الثقافة: والأوقات التي كنا نخصصها للقراءة كان يقضيها في حديقة بيته ممارساً هوايته في رعاية الزهور أو رفع الأثقال.

كانت دراسة الطب هى طموح سرور من فترة مبكرة، ولكنه لم يتمكن من الحصول على مجموع يؤهله للالتحاق بكلية الطب: ولذلك أقنع والديه بوجوب الالتحاق بكلية الطب فى لندن، وكان المتبع أن تقبل الكلية المصرية الطالب إذا نجح عامين فى إنجلترا. وسافر إلى إنجلترا فدرس الطب عامين بنجاح ثم رجع إلى مصر فالتحق بكلية الطب.

مثلما استطاع سرور أن يفرض على أصدقائه معاملته بشكل مختلف، فإنه يفرض على أسرته أن تحقق حلمه. الإصرار إذن مفتاح مهم فى شخصية سرور الذى يفرض بإرادته ما يريد، وهو الإصرار الذى يتيح له أن ينجح فى إنجلترا بعد أن فشل فى مصر. ويثير هذا النجاح مناقشة بين أفراد الشلة تلقى مزيداً من الضوء على شخصية سرور من ناحية وعلى النظام التعليمي فى مصر من ناحية أخرى. يقول رضا حمادة:

- ليس سرور غبيا كما توهمنا وإلا ما نجح في انجلترا!

ويضيف عيد منصور:

- وليس نظام القبول بكلية الطب المصرية سليماً كما يظن.

ويقول جعفر خليل:

- وليست الفرص متكافئة بين الأغنياء والفقراء!.

الشكوك تتبدد حول ذكاء سسرور، ولكن الشكوك تـتزايد بالنسبة لنظم القبول بالجامعة المصرية ومدى العدالة المتوفرة فيها!. سيرور عبد الباقي

وتخرج سرور عبد الباقى فى الكلية عام 1936، وتزوج بعد أربعة أعوام من فتاة من أسرة كبيرة، وتقدم فى عمله عاما بعد عام حتى عد من كبار الجراحين فى مصر، وربح من ذلك أموالاً طائلة فشيد عمارة كبيرة فى وسط الدينة وبنى لنفسه فيللا غاية فى الجمال بالمعادى، ولم يتخلل يوما عن مبادئه الأخلاقية حتى عرف بأخلاقه وإنسانيته كما عرف ببراعته. وهو طبيب مثالى، مهارة فى العمل، وغزارة فى العلم، ورحمة بالمرضى، وبعدا عن الجشع والاستغلال. وهو محبوب جداً من طلابه، وكثيراً ما خاض معارك حادة فى مجلس الكلية بسبب مثاليته التى لا تعرف المهادنة.

جراح ناجح، وزوج سعيد، وأستاذ جامعى مرموق، ومبادئ أخلاقية سامية، وشعبية تنبع من مثاليته ومهارته ورحمته؛ ولكن ذلك كله لا ينفى أنه بعيد عن المجتمع ومنعزل عن الواقع ومنصرف عن الثقافة والسياسة: وبالرغم من علمه الواسع وتجربته الفذة ظل طفلاً ساذجاً بالنسبة للثقافة والعقائد والسياسة ولم ينعم بأى نظرة شمولية للمجتمع الذى يتألق فيه كنجم من نجومه.

مع ثورة يوليو يهتز الاستقرار ويدب القلق." سلبت" الثورة من ملكية أسرة زوجته خمسمائة فدان بجرة قلم، "وسلب" العهد الجديد حقه في عمادة كلية الطب وهو الأكفأ والأحق بالمنصب. امتلأت نفسه بالمرارة والحزن، وقال للراوى:

-- فكرت طويلاً في الاستقالة للتفرغ لعيادتي الخاصة.

ثم قال بإخلاص يقدره الراوى ويؤمن به:

- ولكنى لا أحب أن أتخلى عن واجبى العلمي!.

لم يستقل من الجامعة، ولكنه خرج - مضطرا - من عزلته ليراقب تطور المجتمع الذى لم يهتم به يوما!.

بعد صفقة السلاح المشهورة مع تشيكوسلوفاكيا، جزع الدكتور سرور وقال:

- هذه هي الخطوة الأولى نحو الشيوعية!

وبعد فشل العدوان الثلاثي يصر الدكتور سرور أن ينسب الفضل كله إلى الولايات المتحدة الأمريكية دون الاتحاد السوفيتي، ويجاهر بالدعوة إلى مصادقة أمريكا:

- يحسن بنا ألا نفرط في الصداقة الأمريكية بعد اليوم.

أما القوانين الاشتراكية فتصيبه بالرعب حتى أن زوجته تنصحه بالهجرة! وثمة حوار دال بين الدكتور سرور والراوى يكشف عن رؤيته المعادية للاشتراكية وثورة يوليو معا، فهو يقول:

- الاشتراكية تعبير عن الحقد على المتفوقين.. وقد استولى حكامنا على السلطة بقوة السلاح لا العلم..

وإذ يسأله صديقه الراوى:

-- وما رأيك في مشكله الفقر في مصر؟

يجيب بسذاجة:

- كل يتقرر موضعه على قدر طاقته وتلك هي حكمة الله سبحانه! الانحياز للولايات المتحدة مبرر ومنطقى لأسباب اقتصاديــة سرور عبد الباقع

واجتماعية وأيدلوجية، والعداء لثورة يوليو والاشتراكية يتوافق مع رجل لا يرى إلا نفسه ويرفض الانفتاح على الآخرين والإحساس بهمومهم. لا تناقص بين مواقفه هذه وأخلاقياته السامية، فو مخلص فيما يعتقد، و "سذاجته" - بتعبير الراوى - ليست إلا منظومة فكرية متكاملة.

ولا يخفى الراوى جزعه لما أنس فى صديقه المثالى من نبرة شماتة فى أعقاب هزيمة 1967. وشد ما جزعت عندما أنست فى نبرته شماتة عقب هزيمة 5 يونيه 1967: عندما لم يحسن مداراة فرحته بما ظنه النجاة.

ولكن الراوى نفسه لا ينكر أن الدكتور سرور عبد الباقى من الأخلاقيين الجديرين بالاحترام والتقدير، ويضعه فى خانة واحدة مع الوفدى الصلب رضا حمادة والماركسى المخلص كامل رمزى. مختلفون فى السياسة والعمل، وتجمعهم الشخصية الأخلاقية التى تتجاوز المعتقدات والمهن!.



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابيم





Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم – سنة 1960 – بدأت علاقة الراوى مع الدكتور عزمى شكرى. دكتور فى التاريخ من فرنسا، متزوج من مدرسة فى كلية العلوم، والانطباع الأول إيجابى: جذبنى بذكائه وثقافته وصراحته وأشعرنى تماماً بأنه من الناس الذين يأخذون الأمور مأخذ الجد، ويلتمسون السبل إلى الأمل.

الدكتور عزمى – كما يحكى عنه المفكر سالم جبر – بدأ حياته السياسية وفدياً ذا اهتمام بالمشكلات الاجتماعية، أما عزمى فينفى الانتماء الحقيقي إلى الوفد " التقليدى" ويقول للراوى معبراً عن هويته الحقيقية: لم تكن وفديتى قوية كالحال فى جيلكم، وتخلصت منها تماماً قبيل الثورة، ولكنى بقيت على صلة حميمة بالجناح الوفدى اليسارى، وعددت منذ ذلك الوقت من الشيوعيين وعرفت بذلك فى أوساطهم..

يقف عزمي إذن -- قبل ثورة يوليو -- على يسار الوفد قريباً من

ساکر شاکر

الطليعة الوفدية التى مزجت بين الأيمان بليبرالية الوف الشعبية والتبشير بالأفكار الاجتماعية التقدمية، وفى هذا السياق يبدو موقف الدكتور من ثورة 23يوليو مفهوما ومبرراً: استقبلتها بترحاب وحذر معاً، أعجبت بإلغائها للنظام الملكى وبتحقيقها للجلاء، ولم أعجب كثيراً بإصلاحها الزراعى، وسرعان ما اعتبرتها انقلابا قصد به الإصلاح وتفادى الثورة الحقيقة.

هل ينم هذا الموقف عن رؤية الطليعة الوفدية أم عن توجه فصيل معين في الحركة الشيوعية المصرية؟!. مثل هذا التحليل الذي يجمع بين الإعجاب والتحفظ، لا يروق للثورة التي فصلته من الجامعة واعتقلته. بعد الإفراج عنه يتجه الدكتور عزمي إلى العمل في الصحافة مهتماً في كتاباته بالشئون الخارجية والتاريخية وهي الموضوعات التي تتيح له أن يعبر عن حقيقة آرائه.

التغيير الحقيقى الدى يطرأ على رؤية الدكتور من ثورة يوليو يتحقق بعد توجهها الاشتراكي وصدور القوانين الاشتراكية في يوليو 1961، فهو يقول بعدها:

- الثورة هى أنسب حركة تاريخية لوطننا فى ظرفه الراهن. ويطالب بتأييد الثورة دون تحفظ أو تردد:
- أجل، علينا أن نضع عقائدنا بين قوسين، وأن نؤيدها بكل قوانا!.

وإذا كان هذا التغيير مقنعاً للراوى الذى لا يشك في إخلاص صديقه ولا يشكك في نواياه، فإن الزملاء القدامي للدكتور يتعاملون بمنطق مختلف.

_______ أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ واحد منهم - عجلان ثابت - يرى أنه وغد لا أكثر ولا أقل، ومهما خطر في لباس قديس!.

الراوى أكثر إيمانا بتحولات الدكتور عزمى وأكثر يقيناً بصدورها عن إخلاص حقيقى لا انتهازية فيه، ويسجل له أنه لم يكن مؤيداً أعمى أو متعامياً للثورة، فلم تكن تخفى عنه الأخطاء التى ترتكب. وكثيراً ما كان يردد:

- مما يؤسف له أن الثورة لم تعتمد على الثوريين الحقيقيبين، فخلقت منهم أعداء حينا، أو وضعتهم تحت المراقبة حينا آخر.

وقال مرة بحزن شديد:

- إن الفساد ينتشر كالوباء، لا نملك إلا التحذير، وحتى ذلك لا يتيسر لنا إلا فيما ندر.

يأخذ الدكتور عزمى على ثورة يوليو ما ينفى عنه صفة التبعية والانقياد الاعمى، ويضعه الراوى فى خانة الشيوعيين المتجددين. ولا يخفى عزمى حزنه عند القبض على الشيوعيين، وساوره قلق أشبه بتأنيب الضمير، ولكنه قال:

- إنه التعصب ، والإيمان بالكتب أكثر من الواقع.

وكم اغتبط لدى الإفراج عنهم، واغتبط أكثر عندما علم بأنهم تبرأوا من الحزب الشيوعي، وعقدوا العزم على التعاون مع الثورة، وقال: - هاهم يرجعون إلى موقفي الذي اتهمت به عندهم⁽¹⁾.

هل يلعب "الشيوعى المتجدد" عزمى شاكر دور زرقاء اليمامة فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية؟. هل رأى قبلهم أم أنه آثـر السلامة والمسالة؟. إذا كان الدكتور عزمى يأخذ على الشيوعيين التقليديين تعصبهم وتعلقهم بالكتب والنظريات على حساب الواقع، فإن شيوعياً مخلصاً محترماً مثل الدكتور كامل رمزى يتعامل مع المسألة بمنطق مغاير. فبعـد الإفراج عن الدكتور كامل وتعاونه مع الثورة فى إخلاص ينقصه الأيمان، يشير الراوى إلى عزمى شاكر قائلاً:

- ما أشبه موقفك بالموقف الذي اتخذه هذا الرجل من بادئ الأمر..

يضحك الدكتور كامل، ولكنه يقول بحدة:

- لقد سلم قبل المعركة، أما نحن فسلمنا بالأمر الواقع بعد أن أثبتت المعركة عقمها.

ويعلق الراوى:

- لعله كان أبعد نظرا.

⁽¹⁾ يقع نجيب محفوظ هنا في خطأ بنائي فادح يتعلق بالسياق الزمنسي للرواية، فقد أعنقل الشيوعيون قبل أن تبدأ علاقة الراوى مع الدكتور عزمي، سنة 1960 كما يحدد، والقرارات الاشتراكية أعلنت أثناء اعتقال الشيوعيين وليس قبل ذلك كما نفهم من السياق.

لمزيد من التفاصيل عن الحركة الشيوعية المصرية وموقفها من ثــورة يوليو خلال الفترة، راجع: د. رفعت السعيد، تاريخ الحركة الشـــيوعية المصرية 1986-1965، شركة الأمل، ط1، القاهرة،1986.

_____ أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوط

فلا يملك الدكتور إلا أن يقول بدوره:

- اسمح لى في هذه الحالة أن ألعن بعد النظر!

قد تكون النتيجة واحدة، ولكن الطريق إليها مختلف. ووفق هذه القاعدة، فإن عزمى شاكر يختلف عن الذين خاضوا التجربة واكتووا بنيران المعارضة قبل أن يضطروا إلى التعايش مع ثورة يوليوا.

وعلى الرغم من حماس الدكتور عزمى للثورة وتعاطفه مع الشيوعيين، حزنا صادقا عند الاعتقال وغبطة من القلب بعد الافراج، فإن نفسه لا تخلو من الامتعاض لأن المفرج عنهم تولوا المناصب الرئيسة في الدولة والصحافة، تاركين إياه – نسبياً – في القاع. وتتجلى المرارة في قوله للراوى:

- أخشى أن يكتشف الكتاب يوماً أن اللامعقول أسلوب مناسب لمعالجــة العقائد أيضاً!.

ولعل الامتعاض الذى أصابه هو ما دفعه إلى العودة من جديد إلى أحضان الجامعة، وهى العودة التى رفضها من قبل عندما عُرضت عليه بعد تعاونه مع الثورة وحماسه لها!.

ويتوقف الراوى طويلاً أمام رد فعل الدكتور عزمى على هزيمة 1967. لقد أصابه ما أصاب الجميع، وتزلزل كيانه من وقع الصدمة، ولكنه كان من أوائل الذين تماسكوا: ففى أكتوبر من السنة نفسها نشر مقالة المشهور الذى حلل به الهزيمة، فاعتبرها درساً، وحذر من الاستسلام لطغيان النقد واحتقار الذات وتعذيبها وفقدان الثقة بالنفس، وأكد فى النهاية حقيقة ما

زال يؤمن بها وهى أن الثورة هى الأرض الحقيقية المتنازع عليها، لا سيناء ولا القدس، وأنها هى التى يجب أن تبقى وأن تستمر.

ولا يقنع الدكتور بالمقال، ففى الأعوام التالية عكف على تأليف كتابه " الرائع" -- بلغة الراوى - "من الهزيمة نبدأ": وهو دستور لحياة جديدة تشق طريقها نافضة عن نفسها ركام الأتربة.

يتحمس الراوى لكتاب صديقه الموصوف بالروعة، ولكن الحماس يغيب عن آخرين لا يشاركونه الرأى.

المفكر سالم جبر يغضب من إعجاب الراوى بكتاب الدكتور عزمى، ويرى أن الدكتور ليس إلا معادلا موضوعياً مدنياً!.

ويسخر عجلان ثابت من الكتاب، ويتلاعب بعنوانه فيسميه متهكما في اتهام: "من الانتهازية نبدأ"!.

ولكن هذه الاعتراضات والسخريات لا تؤثر في حماس الراوى للدكتور عزمى الذي يعمل بهمة مذهلة، وهو لا يخفى أن إعجابه مرتبط بصدق الرجل وتوافقه مع نفسه: هو من القلة التي لم تصب بانقسام الشخصية، فهو هو سواء تكلم على الملأ أم في مجالسه الشخصية.



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس ٢





أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

فسى معرض الحديث عن رضا حمادة، يقول الراوى: غير أن إعجابي الأول به إنما يرجع إلى شخصيته الأخلاقية قبل كل شئ، وقليلون جداً ممن عرفتهم يماثلونه في ذلك مثل كامل رمزى وسرور عبد الباقي.

رضا حمادة وفدى ليبرالى، وسرور عبد الباقى تقليدى محافظ بلا انتماء سياسى محدد، وكامل رميزى ماركسى. الأول رجل قانون، والثانى طبيب وأستاذ في كلية الطب، والثالث أستاذ جامعى متخصص في الاقتصاد. الشخصية الأخلاقية هي المشترك الذي يتجاوز الانتماءات السياسية والمهنية وهي التي تجمع ما يبدو للوهلة الأولى أنه مختلف متنافر.

كامل رمزى ماركسى أخلاقى يحظى بإعجاب الراوى واحترامه على الرغم من تأخر التعارف بينهما مقارنة برفيقى العمر رضا و سرور: تعارفنا عام 1965 فى بيت الدكتور عزمى شاكر. كان حديث عهد بالحرية بعد أن قضى فى الاعتقال خمسة أعوام. وهو أسمر نحيل طويل أصلع كبير الرأس

_____ کام_ل رميزي

صغير العينين براقهما في الخمسين من عمره. دكتور في الاقتصاد وكان أستاذا بكلية التجارة حتى تاريخ القبض عليه. قلت له:

- قرأت كتابك عن المذاهب الاقتصادية وأشهد بأنه أمتعنى بقدر ما أفادنى.

فشكرني وقال:

-- كانت الحياة الجامعية تناسبني جداً!

وقال الدكتور عزمي شاكر:

أتهم خطأ بالنشاط العملى أما الحقيقة فهى أنه أستاذ مفكر لا يجاوز نشاطه مجال التفكير والتأليف.

وفى نفس الأسبوع الذى تعارفنا فيه ولى منصباً كبيراً، وقال لى عزمى شاكر للمناسبة:

- إنه مثال في العلم والحزم والنزاهة.

خمس سنوات فحسب هى التى تجمع بين الراوى وكامل رمزى، من بداية التعارف سنة 1965 إلى نهاية الإطار الزمنى الذى تدور فيه أحداث "المرايا" سنة 1970، ولكنها سنوات كافية لتشكيل صورة متكاملة عن شخصية مفتاحها الأساس يتمثل فى سيطرة النزعة الأخلاقية التى تتجلى فى الإخلاص للعلم والتفانى فى العمل والالتزام الصارم بالنزاهة. الدكتور كامل رمزى ماركسى "نظرى" لا يميل إلى النشاط العملى، وأستاذ جامعى يحب مهنته ويقدم إنتاجا علمياً مقروءا متميزاً، وفى سيرة حياته ما يقدم النموذج الثال للعالم الحازم النزيه.

استاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

والدكتور كامل ليس شخصا محبوباً بقدر ما هو شخص محـترم، وبين الحب والاحترام فارق كبير لا يمكن إغفاله. إنه ينال احترام الأصدقاء سالم جبر وزهير كامل ورضا حمادة وقدرى رزق وصادق عبد الحميد، وهم مختلفون كل الاختلاف، ولكن الراوى يلاحظ أن أحدا من هؤلاء الأصدقاء لا يغالى في حبه.

ربما يكمن السر في طبيعته التي تفتقد المرونة ولا تخلو من الحدة وتميل إلى التزمت وتتسم بصراحة جافة وصدق موجع: وله قدرة فائقة في المناقشة والجدل. ويتكلم إذا تكلم بثقة وصراحة وقوة. ولا يؤمن في شئ بالحلول الوسطى، ولا بالمجاملة، ولا بالتسامح، بل يؤمن برأيه لحد التعصب، ولا يطيق المعارضة فهي تثير أعصابه وتخرجه عن الاتزان اللائق بمركزه فسرعان ما يهدر غاضباً بالحجج والأدلة وكأنه يخوض معركة حامية. وهو يشبه عبد الوهاب إسماعيل في تعصبه على تناقضهما في الأسلوب، حتى قلت مرة للدكتور عزمي شاكر:

- إنه عالم ولكنه ذو عقلية دينية!

فقال:

- إنه متعصب بلا شك، ومشتعل في مناقشته، ولكن أعصابه لم تفسد بهذه الصورة إلا بعد تجربة الاعتقال.

كيف يحظي بالحب رجل صريح بعيد عن المجاملة والتسامح وأقرب في مناقشاته إلى التعصب والعصبية؟!. عبد الوهاب إسماعيل (1) - في

⁽¹⁾ الشخصية - كما يقدمها نجيب محفوظ - قريبة في ملامحها وسماتها من المفكر الإسلامي المعروف سيد قطب، وعبد الوهاب إسماعيل ينال احترام الراوى وتقديره - مثل كمامل رمنزى - ولكنه موصوف بالتعصب الديني.

سسس کامل رمیزی

مرحلته الثانية – ينتمى إلى الإخوان المسلمين وصاحب نظرية فى تكفير المجتمع ومعاداة العلم والعقبل، وكامل رمزى ماركسى ينتمى إلى الحركة الشيوعية المصرية، ولكنهما يتفقان ويتشابهان فى التعصب الذى يؤدى إلى نفور الآخرين وإن لم يقض على الاحترام.

يقول عنه رضا حمادة:

- لقد تشفعت به فى نقل موظف فأعطانى درساً قاسياً فى فساد الوساطة، ومع أننى استأت فى نفسى إلا أننى ازددت إعجابا به..

ويضيف عزمي شاكر:

- بل أوصاه وزيره بموظف فاعتذر عن عدم التنفيذ حرصاً على مبادئ العدالة!.

ولا يملك الراوى عند هذه الواقعة إلا أن يتدخل – ونجيب محفوظ على دراية واسعة بعالم الموظفين⁽²⁾ ومعنى توصية وزير – ليتساءل في دهشة:

- وزيره نفسه؟!
- أجل، إنه خلق صلب غير قابل للثنى، ولذلك أشك كثيراً في إمكانيـة بقائه في منصبه.

فسأل رضا حمادة:

- هل يستغنون عن موظف لاستقامته؟

⁽²⁾ عن تأثير الوظيفة على العالم الفنى لنجيب محفوظ، راجيع دراستنا "صورة الموظف في روايات نجيب محفوظ". طبعة محدودة، مكتبة السلام، المنيا، 1990.

ـــــ أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

ويرد الدكتور عزمى:

- إن الأسباب التى تدعو للاستغناء عن موظف لاستقامته اكثر من الأسباب التى تدعو للاستغناء عنه لانحرافه!.

ويعترف كامل رمزى نفسه بأن أحدا في إدارته لا يحبه بدءا من الفراش حتى الوزير:

لا أستطيع أن اهتم بعواطف الناس والمصلحة العامة معاً، إن منصبى يحتاج لألعبان لا لموظف أمين.

ثم قال بازدراء:

- نحن شعب المصاطب والمجاملات والمساومات.

صداقة الدكتور كامل مع رضا حمادة لا تقود إلى الوساطة البغيضة، والمنصب الوزارى لا يعنى إهدار العدالية وتكافؤ الفرص. قد يكون رضا قادراً على استيعاب الدرس الذى يقدمه الصديق الجاد الملتزم، ولكن المجتمع لا يعمل وفق قوانين أمثال رضا!. لا ينال الحب إلا من يتقن أسلوب المصاطب ويجامل ويساوم، ولذلك يصح ما توقعه الدكتور عزمى ولا يعمر كامل رمزى فى وظيفته الكبيرة: باشرها عاما واحداً حتى ضج جميع أهل الأرض من صلابته ونزاهته، وإذا بجرائد الصباح تنشر خبر نقله إلى مؤسسة صحفية. ومن عجب أن عمت الشماتة به أكثرية الناس.

أكثرية الناس هم الذين يمثلون المجتمع، وهؤلاء الشامتون يعرفون نبل ونزاهة كامل رمزى، ولكنهم – في الوقت نفسه – يضيقون بنبله ونزاهته. كامل وأمثاله من الأخلاقيين يفضحون – بقوة أخلاقهم – المتخاذلين الضعفاء: لذلك لم أسمع رثاء له إلا بين خاصة أصدقائه. وأما هو فقد غضب وفاضت نفسه

مرارة وخيل إليه أن نواميس الطبيعة تقلقلت وشذت عن مداراتها. ولكن ذلك لم يمنعه من مزاولة عمله الجديد بنفس الهمة والنزاهة والقوة السابقة، بل إنه وجد فراغاً لم يكن يجده فاستأنف نشاطه العلمى، وشرع فى وضع قاموسه السياسى. وكان ومازال شعلة من النشاط المتواصل، ونورا يطارد ظلمات اليأس.

الغضب شعور إنساني، والمرارة مبررة، ولكن جوهر الشخصية لا يتغير فتستمر الهمة والإيمان بقداسة العمل كواجب لا يمكن التخلي عنه.

ولأن العمل قيمة مقدسة، فإن الخلافات الأيدلوجية بين الدكتور كامل وثورة يوليو – وهى التى أعتقل بسببها خمسة أعوام – لا تحول بينه وبين التعاون مع الثورة في إخلاص لا يتناقص مع غياب الإيمان الكامل بها: خلقت لأعبد العمل وأخلص له.

وفى حياة الدكتور كامل الشخصية ما يتوافق وينسجم مع أفكاره وسلوكه العام. زوجته دكتورة فى الاقتصاد ومدرسة بكلية التجارة ومثال مشرف للمرأة المصرية، وعندما يزداد اختلاط الراوى به فإنه يتعرف على أسلوبه فى الحياة: فهو يميل إلى التقشف فى ملبسه، و طعامه الذى يشبه الرجيم، وإلى ذلك فهو لا يدخن ولا يذوق الخمر. وهو يعترف للراوى بأنه لم يعرف المرأة قبل الزواج، وقاوم جميع المغريات وهو طالب فى البعثة!.

وعلى الرغم من إيمان الدكتور بالمادية الجدلية، فإنه يصوم رمضان متأثراً بتربية أبيه العامل البسيط المتدين، وله وجهة نظر في الدين تختلف عن رؤية الشيوعيين التقليدية: العظمة الحقيقية للدين لا تتجلى إلا عندما تعتبره لا دينا! عالم ذو عقلية دينية، ومادى متقشف ذو سلوك مثالى؛ هذا هو الدكتور كامل رمزى الذي يقدم نموذجاً لأستاذ الجامعة الجاد المحترم غير المحبوب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس ٦





كأن الدكتور ماهر عبد الكريم أستاذاً مساعدا بكلية الآداب عندما التحق بها الراوى عام 1930، ومنذ البدء يتميز الدكتور ماهر عن غيره من الأساتذة: يتمتع بسمعة علمية وأخلاقية وإنسانية كأنها عبير المسك. ولم أعرف أستاذا فتن طلبته بسجاياه الروحية وسماحة وجهه مثله. وهو سليل أسرة عريقة، عُرفت بثرائها كما عرفت في التاريخ الحديث بولائها للحزب الوطني، وعد هو بالتبعية من الموالين للحزب، ولكن ذلك لم ينل من حبنا له، والحق أنه لم يعلن عن ميل سياسي قط، ولم يقع في رذيلة التعصب أبدا، ولم ينطق في حديث عن هوى أو تحيز أو حقد، ووهب نفسه للعلم والخير.

علم وأخلاق وإنسانية، شعبية جارفة فى الوسط الطلابى الذى لا يمنح الحب بسهولة، أسرة عريقة ثرية ذات اتجاه سياسى معروف، ابتعاد محمود عن التعصب وضيق الأفق؛ هذا هو الدكتور ماهر عبد الكريم الذى يقدمه نجيب محفوظ كنموذج أرقى وأسمى لأستاذ الجامعة.

ولعله مما يؤكد مكانة الدكتور ماهر الراسخة في قلبوب تلاميذه أن انتماءه الموروث للحزب الوطني، وهبو الحبزب الذي قاد الحركية الوطنية ____ماهر عبد الكريم

المصرية قبل أن يزيحه الوفد فى أعقاب ثورة 1919، لم يهز مكانته أو يشوه صورته فى مرحلة تاريخية كان التعصب السياسى فيها طاغياً، والوفد هو المهيمن على عقول ووجدان الأغلبية العظمى فى الشارع المصرى والجامعة (۱) على حد سواء. يقول الراوى إن انتماء أستاذهم للحزب الوطنى لم ينل من حبهم له، وكأن الأصل أن يؤثر مثل هذا الانتماء فيسلب الحب والتقدير! وفى صالون الدكتور ماهر ذى النزعة الثقافية، كان تلاميذه يتجنبون الحديث فى السياسة لكونه من المنتمين للحزب الوطنى بحكم أسرته ونشأته على حين أن تلاميذه جميعاً كانوا من شباب الوفد.

التلاميذ "جميعاً" من الوفديين، والدكتور – لأسباب أسرية قبل أن تكون سياسية – محسوب على الحزب الوطنى، ولكن الاختلاف السياسى لا يفسد المودة العميقة التى يكنها له تلاميذه وفى مقدمتهم الراوى الذى يبدو منجذباً ودرويشاً وعاطفياً بلا حدود: كرمه كان يلتهم ثروته، فلم يصد محتاجا قط، وكان يجود بالإحسان سراً كأنما يتستر على عيب، وكان مثلا لسعة الصدر، هكذا كان فى مناقشاته العلمية والعامة، بل والسياسية إذا جر إليها جرا، وكأن أسارير وجهه لم تهيأ أصلا إلا للتعبير عن التأمل أو الترحيب أو البشاشة، وغير قابلة للإفصاح عن الحدة أو الغضب. وكان قصره القديم بالمنيرة مئتقى أهل العلم والأدب والفكر، وبه متسع دائما لطلبته فيقدمهم إلى الكبار ويعاملهم معاملة الأنداد، و ما أكثر الذين عرفتهم فى صالونه من رجال الفكر.

⁽¹⁾ يقول عجلان ثابت في "المرايا": لا تحترم طالباً غير مهتم بالسياسة، و لا تحترم مهتما بالسياسة إن لم يكن وفديا، و لا تحترم وفدياً إن لم يكن فقيراً. لمزيد من التفاصيل عن شعبية الوفد وتغلغله في الحركـــة الطلابيـة، راجع در استنا: "الرؤية الوفدية في أدب نجيب محفوظ".

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

ليس حباً عاديا ذلك الذى يكنه الراوى للدكتور ماهر عبد الكريم، فالأمر يتحول إلى نوع من العشق الذى تعبر عنه لغة موغلة فى العذوبة والشعرية. ولا يبالغ الراوى عندما يتحدث عن قيمة وأهمية الصالون الثقافى الذى يمثل محطة رئيسة فى حياته وحيوات غيره، ففى الصالون تدور أخطر الأحاديث السياسية والثقافية والاجتماعية التى تعبر عن تفاعلات الحياة المسرية عبر ما يزيد عن ثلث قرن من الزمان، وفى الصالون أيضا يتعرف الراوى على كثير من شخوص الرواية كما ينص على ذلك فى معرض الحديث عنهم.

تعرف الراوى - أثناء دراسته الجامعية - بالمفكر سالم جبر فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بالمنيرة، وعرف الناقد الأدبى عبد الوهاب إسماعيل - الزعيم الإخوانى فيما بعد - فى الصالون نفسه أثناء الحرب العالمية الثانية، وبدأت علاقته مع الدكتور اليسارى عزمى شاكر فى الصالون أيضا عام 1960.

مفكر أقرب إلى الفوضوية، وآخر تنتهى حياته مع الإخوان المسلمين، وثالث ينتمى إلى اليسار. كلهم في الصالون الذي تحول إلى كعبة ومقصد لأهل الفكر في مصر، ومن هنا كثرة المترددين عليه وحرص البعيدين عنه على الانتساب إليه. من هؤلاء الدكتور صادق عبد الحميد: وبتحريض حار من ناحيته قدمته إلى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم.

وفي هذا الإطار يمكن تفسير الخجل والحرج الذى يمنع من يشعرون بارتكاب الخطأ من التردد على "الكعبة" التي تجمع الصفوة والشباب معاً.

الدكتور إبراهيم عقل يمتنع عن الحضور إلى الصالون بعد وثوبه الانتهازى إلى الوظيفة الجامعية الكبيرة، واقتصرت مقابلاته لصديقه على الزيارات الخاصة.

وبعد انقلابه الانتهازى المفاجئ وتحوله المذهل من الوفد إلى ضباط يوليو، يتجنب الدكتور زهير كامل التردد على الصالون.

يقدم الدكتور ماهر عبد الكريم من خلال صالونه الثقافية وتشجيع نموذجاً إيجابيا فعالا لدور الأستاذ الجامعي في إثراء الحركة الثقافية وتشجيع تلاميذه على النمو والاستقلال الفكري. وعلى الرغم من سماحة الدكتور وترحيبه بكافة الاتجاهات الفكرية والسياسية المتنافرة، فإنه يعلى من شأن الجانب الأخلاقي فلا يفتح بيته للمشبوهين ومن تحيطهم الأقاويل والشائعات. وكم تألم الراوي عندما لم يجد من أستاذه استعدادا للترحيب بعجلان ثابت:

- يقال إنه شخص ..

وابتسم ابتسامة استغنى بها عن تسجيل وصف لا يرتاح إليه ذوقه الرفيع!.

صالون الدكتور ماهر "كعبة" يحج إليها الجميع، وقد يغادر الدكتور قصره في المنيرة إلى فيللا حديثة في مصر الجديدة، ولكن الصالون لا يتبدل ويستمر في أداء دوره: وقد باع قصره القديم بالمنيرة واشترى فيللا جميلة بمصر الجديدة ما زالت حتى اليوم تستقبل أهل الفكر والرأى.

لا يقتصر الإعجاب بالدكتور ماهر على الراوى وحده، فالدكتور إبراهيم عقل يقول عنه: لو كان جميع الأغنياء مثل ماهر عبد الكريم، لقررت أن المثل الأعلى للإنسان أن يكون غنياً!

وطنطاوى إسماعيل، الأخلاقي المتزمت المتشدد، يرى أنه رجل عظيم.

ولكن المدح يتداخل مع الذم والرغبة الخبيثة في النقد والانتقاص عند سالم جبر وعباس فوزى، وتقييم ما يقولانه والحكم على مدى موضوعيته يتطلب تعريفاً موجزا بهما. سياذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

سالم جبر من الدعاة المتحمسين للحضارة والاستقلال الاقتصادى وتحرير المرأة، ولكنه متقلب سياسياً ومولع بالمعارضة الدائمة. يقول عنه الراوى بعد استعراض بعض تناقضاته: واقتنعت أخيرا بأنه شخص غريب خلق ليكون معارضاً ، حبا في المعارضة قبل كل شئ، فإذا كانت الدولة إقطاعية فهو شيوعي، وإن تكن يسارية فهو محافظ.

وكثير من زملاء ومعارف سالم جبر يتخذون تجاهه موقفا سلبياً.

إبراهيم عقل يحذر تلميذه الراوى من فلسفة سالم الكاذبة، وعباس فوزى يصفه بالفجور، أما رضا حمادة فيوقن بجنونه ويعتقد أنه لا يوجد إنسان مثله يجمع الكل على بغضه!.

عباس فوزی عالم كبير متبحر فی التراث، وهو يحفظه كله شعرا ونثراً عن ظهر قلب!. ولكنه – مثل سالم جبر – كثير التناقضات ومولع بانتقاص الآخرين والحط من شأنهم، ويبادله الآخرون مشاعره!. يقول عنه طنطاوی إسماعيل إنه ذو علم وبلا خلق، ويزعم أعداؤه أن والده كان ترابيا وأمه غسالة، ورموه كذلك بالشذوذ الجنسى!.

سالم جبر وعباس فوزى – وهذا حالهما – ليسا من الموثوق فيهما وفي قدرتهما على التقييم الموضوعي المنصف للآخرين، وما يقولانه عن الدكتور ماهر عبد الكريم يحتاج إلى مراجعة وتمحيص وتأمل.

سالم جبر يحب الدكتور ماهر ويعجب به، ولكنه يراه من طبقة النبلاء: لم يعرف الفقر، ويرى الشعب من فوق، وله رؤيته الخاصة وهى رغم جاذبيتها ونقائها غريبة عنا كأنها لغة كوكب آخر.

والساخر اللاذع عباس فوزى يمدح الدكتور ماهر بكلمات ظاهرها

الرحمة وباطنها العذاب، وآراؤه خبيثة تحتمل التأويل!.

يقول عنه إنه وجيه نبيل، مملوك من نسل مماليك!.

ويقول أيضاً: في مصر لا يجتمع النبل والثورة والعلم، ولكن النبيل الغنى متعالم، يستغل ذكاء الفقراء، يجمعون له البحث ويقترحون عليه الأفكار، أما هو فيصغى بوقار ويوقع بإمضائه!

ومرة أخرى يقول للراوى: أستانك ذواقة لكل طعام جيد، يلتهم في اليوم ما يكفى لغذاء لواء من الجيش، خبرنى يا عزيزى متى يفرغ من الهضم ليتفرغ للتفكير والبحث؟!.

سالم جبر يتهم الدكتور ماهر بالانعزالية والاستغراب والتعالى، وليس فى سلوك الدكتور ما يؤكد الاتهام الذى يبدو مرسلا بلا دليل. أما عباس فوزى فيوحى قوله الأول أن ماهر عبد الكريم شاذ جنسياً " مملوك من نسل مماليك"، ويقود قولاه الآخران إلى اتهام الدكتور بالاعتماد على جهود غيره فى التأليف والإنتاج العلمى. تهمة الشذوذ مرسلة وقد اتهم بها عباس نفسه، أما علم الدكتور فقد عاينه تلاميذه بشكل مباشر وعرفوا ما يتمتع به أستاذهم من دقة ووضوح وغزارة فى العلم.

اتهامات متهافتة لا تصمد للمقارنة بالفضائل الكثيرة التى يستحق بسببها الدكتور آيات المدح والثناء، والذى يستدعى التوقف هو ما يتعلق برؤية الدكتور ماهر عبد الكريم السياسة و مواقفه العملية المترتبة على هذه الرؤية.

ينتمى الدكتـور مـاهر إلى الحـزب الوطنـى، وإن لم يعلـن عـن ميـل سياسى قط، أما تلاميذه - ومنهم الراوى - فينتمون "جميعاً" إلى حزب الوفد.

استاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

والحزب الوطنى فى عالم نجيب محفوظ لا يحظى بالاحترام والتقدير إلا فى المرحلة السابقة لثورة 1919، وبعدها يتحبول إلى واحد من أحراب الأقلية المكروهة من الوفديين والمتهمة بعديد من النقائص والعيوب.

عدلى كريم - المفكر التقدمي- يصف الحزب الوطنى بأنه تركى ديني رجعى!" السكرية -107".

ورياض قلدس – في معرض حديثه عن الوفـد الـذي ينتمـي إليـه --يري أنه ليس حزباً دينيا تركياً كالحزب الوطني." نفسه-175"

وبينما الوفد هو حزب الوحدة الوطنية ، كنان الشيخ عبد العزيز جاويش – أحد قيادات ورموز الحزب الوطنى – يقترح في المناضى أن يصنع المسلمون أحذيتهم من جلود المسيحيين⁽²⁾." نفسه–178"

⁽²⁾ نشر الشيخ عبد العزيز جاويش (1876–1929) مقاله "الإسلام غريب في بلاده" في جريدة "اللواء" جريدة الحزب الوطني في 17 من يونيه سينة 1908، وجاء مقاله العنيف في سياق مناخ متوتر اشتعل فيه الصراع واشت الخلاف بين المسلمين و المسيحيين. وقبل أن ينشر الشيخ جاويش مقاله بيومين كتب فؤاد كامل طاعنا في الدين الإسلامي: "إن الاعستزاز بالقوة والاستهتار بالضعيف، هما الحجران اللذان بني عليهما، ما يسمونه مجد الإسلام"!!

وفي مقال الشبخ جاويش الذي حوى العبارة العنيفة التي يستشهد بــها رياض قلدس، ما ينم عن اعتزاز الرجل بالوحدة الوطنية وحرصه على العلاقة الودية بين المسلمين والمسيحيين في مصر.

لمزيد من التفاصيل، راجع:

⁻ انور الجندى: عبد العزيز جاويش، الدار القومية للطباعـــة والنشـر، سلسلة أعلام العرب، العدد 44، القاهرة،1965.

⁻ فتحى رضوان: مشهورون منسيون، مؤسسة أخبار البوم، كتاب اليوم، العدد 27، القاهرة، (1970.

ويتحدث عامر وجدى عن القـوى السياسية التـى عاصرهـا، ومنـها الحزب الوطنى بحماساته وحماقاته. "ميرامار—23"

ويصف نجيب محفوظ أحد رجال الحزب الوطنى فى طوره الثانى -- طنطاوى إسماعيل -- فيقول إن وطنيته تبلغ درجة التعصب الأعمى. "المرايا -- 222"

وهكذا يظهر الحزب الوطنى في صورة سلبية بعد نجاح ثـورة1919 التي قضت على الكثير من شعبية الحزب الذي قاد الحركة الوطنية قبلها.

مكانة الدكتور ماهر فى قلوب تلاميذه الوفديين تحول بينهم وبين الحديث فى السياسة، ولكنهم لا يتخلون أبدا عن رؤيتهم التى تؤثر فى تقييمهم للآخريين من أصحاب الانتماءات السياسية المختلفة. ولقد عاش الدكتور ماهر حياته كلها بعيداً عن الشبهات، ولكن الراوى – مع حبه يأبى إلا أن يشير إلى شائعة تتعلق بأستاذه الأثير فى فترة القلاقل بعد نهايية الحرب العالمية الثانية: قيل إنه رفع خطابا سريا إلى الملك فاروق يحدر من مغبة التمرد الذى يجتاح الشباب، مفصلاً أسبابه وبواعثه ومقترحا العلاج له. سمعنا ذلك فيما نسمع من شائعات فى المقاهى، حتى اليوم لم أتأكد من صدق الشائعة، وكل ما قيل عنها كان ضرباً من التخمين ونتيجة للأهواء السياسية المتنازعة، فقال وفديون إنه اقترح على الملك حل الأحزاب وإقامة ديكتاتورية مالحة تعجل بالإصلاح وتربى الشباب تربية دينية علمية، وقال المتطرفون من تلاميذ سالم جبر إنها دعوة لثورة مضادة يراد بها تفادى الثورة الحقيقية.

ويتدخل الراوى ليدلى برأيه المختلف عن الوفديين الذين لا يعرفون أستاذه وعن المتطرفين الذين يرددون أفكار سالم جبر: أما أنا فساءتنى

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

الرسالة - مهما كان مضمونسها - باعتبارها انتهاكا لحرية الدستور واستهتارا بسلطة الشعب، ووجدتنى فى حرج شديد بين إجلالى لأستاذى وبين موقفى السياسى الواضح، ووجدت حرجاً أكثر فى مفاتحته بالموضوع، غير أن جعفر خليل وجد الجرأة لمفاتحته.

الأمر كله مجرد شائعة انطلقت فى مرحلة متقلبة تروج فيها الشائعات والأكاذيب، وفى مناخ سياسى ملئ بالقلاقل تكتسب الأقاويل تأثيرا وتحدث دويا لا علاقة له بصدق وموضوعية ما يقال. يتعامل الجميع مع الشائعة كحقيقة، ويتبارى الوفديون وغيرهم فى تحليل "الخطاب السرى" والوصول بتحليلاتهم إلى أحكام قاسية بلا سند من المنطق. وعلى الرغم من أن الراوى يعترف بأنه لم يتأكد من صدق الشائعة، وعلى الرغم من معرفته الوثيقة بأستاذه وأخلاقياته، فإنه – من منطلق عقيدته الوفدية الطاغية – يتعامل مع الرسائة كحقيقة تثير غضبه لأنها تمثل انتهاكا للدستور واستهتاراً بالشعب!.

ما الذي حدث عندما وجد جعفر خليل في نفسه الجرأة على مصارحة أستاذه بكل ما يقال ويشاع؟. أنصت الدكتور في هدوء وابتسم، ثم سأله:

- صدقت ما يشاع وما يقال؟

فتراجع جعفر خليل قائلا:

– کلا

فاكتفى الأستاذ بقوله:

- عظيم!

المناخ المشحون بسالتوتر يدفع الراوى وصديقه جعفر إلى التصديق

سيسسسسسسسسسسسسسسسساهر عبد الكريم

والشك، والثقة المطلقة في الأستاذ الجليل تؤدى إلى التراجع، وتنتهى مشكلة ليس لها وجود!.

الدكتور ماهر عبد الكريم ليس وفدياً شعبياً، وأصوله الاجتماعية تتوافق مع شخصيته الهادئة للوصول إلى بناء فكرى عاقل متزن يتسم بدرجة عالية من الاعتدال الذى يتجلى في تعليقاته ورؤاه ومقولاته التي تصدر عنه في عديد من المواقف.

ثقته فى الشعب ليست مطلقه كما هو الحال عند الوفديين المتحمسين، وفى حوار سياسى ساخن عن الحياة الدستورية والحزبية بعد ثورة 1919، يتدخل بهدوء ويقول فى صوت ناعم هامس: شعبنا مثل الوحش الذكور فى بعض الأساطير الشعبية يستيقظ أياما ثم ينام أجيالا.

وهو يعادى الأفكار اليسارية ويرفض التجربة الاشتراكية السوفيتية التى يتحمس لها سالم جبر: إنك يا أستاذ تحلم بثورة كالتى قامت في روسيا منذ أربعة عشر عاما، وهي تتكشف كل يوم عن مضاعفات خطيرة..

واعتقد الدكتور ماهر دائما أن الإسلام يكفل للناس عدالة اجتماعيـة شاملة كما اعتقد أن نشر التعليم يحقق الغاية نفسها بطريقة أخرى.

مفكر معتدل يبزن أقواله بميزان دقيق يناى به عن التطرف والانفعال، وهو لذلك بعيد عن الوفد وشعاراته الشعبية الحماسية بعده عن ثورة 23يوليو وشعاراتها وممارساتها.

موقف الدكتور ماهر من ثورة يوليو يؤكد أن الرجل يستحق ثناء تلاميذه وحب عارفيه. إنه لا يتوافق مع أفكار الثورة وقراراتها، ولكنه لا استاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

يخلط بين الذاتى والموضوعى فى تعامله معها. وعلى الرغم من أن بعض إجراءات الثورة قد أصابته فى الصميم وألحقت به ضرراً فادحاً لا يستهان به، فإن الراوى يشهد له بالاعتدال والإنصاف: ولا أظن أن إقطاعيا تلقى الضربة التاريخية فى مثل هدوئه، تلك الضربة التى نزعت من يده عشرة آلاف من الأفدنة.

لم يعلن الرجل ولاءه للثورة، لبعده عن مجالات الإعلام ولرغبته عن إقحام نفسه فيها بطريقة غير طبيعية أن يرمى بشىء مما يمس الكرامة، ولكنه لا يتردد عن إعلان الولاء – الذي لم يطالبه به أحد – في مجالسه الخاصة. يقول لمجالسيه: إنى مقتنع بما يقع فهو أقل ما يمكن كني يصلح الوطن للحياة وتصلح الحياة له.

ولا يستشعر الراوى فى حديثه أو سلوكه أى اثر لمرارة، ولا معنى بعد ذلك للتنقيب فى الأفئدة فلا يُطالب مثله بأكثر من ذلك، أكثر من أن يواجه بحكمة ثورة تاريخية منطلقة أصلاً لاقتلاع طبقته، وأن يقنع نفسه بها فلسفياً كحركة تاريخية حتمية لا مفر منها طال الزمان أو قصر.

انتزعت ثورة يوليو من أسرة الدكتور ماهر آلاف الأفدنـة، ولكنها لم تتعرض لشخصه بسوء. وفى ظل الثورة حصل الدكتور على حقه كاملا من التكريم والتقدير: عين عضوا فى المجلس الأعلى للآداب ونال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية كما نال وسام الاستحقاق من الدرجـة الأولى. إذن قدرت له الثورة مكانته العلمية وسمعته العطرة واستقامته العامـة التى أبعدته عن الشبهات.

وتتجلى وطنية الدكتور في أسمى صورها بعد هزيمـة 1967، وهـى الهزيمة التي فرح بها كل أعداء الثورة. ماهر عبد الكريم لم يفرح أو يشمت، بل إنه يجد حرجا فى الاحتفال الذى أقامه تلاميذه وأصدقاؤه له بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسبعين الذى حل بعد عامين من الهزيمة: لا احتفال بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة، فلا يجوز أن نحتفل ونحن نقاتل..

يبقى جانبان فى شخصية الدكتور ماهر عبد الكريم يستحقان التوقف: الأول هو حياته الشخصية والعاطفية، والثانى هو خصوصية علاقته مع صديقه الدكتور إبراهيم عقل.

ليس في "المرايا" كلها ما يكشف عن الحياة الشخصية والعائلية للدكتور ماهر، فلا إشارة إلى زوجة أو أبناء. هذا الجانب مسكوت عنه تماما، ومرة واحدة يتطرق الراوى إلى حياة أستاذه العاطفية عندما يدعوه الدكتور مع زميله جعفر خليل لتولى أعمال الترجمة عن اللغة الإنجليزية التي يجهلها – عند زيارة آنسة أمريكية له في قصره: أمها كلفتها بالبحث عن شخص في مصر يُدعى ماهر عبد الكريم كان طالباً بالسوريون في أعقاب الحرب العظمى..

ووضح لنا من تبادل الحديث أن أمها كانت زميلة لأستاذنا في باريس، وأنها كانت صديقته أيضا، وأنها انتهزت فرصة سفر ابنتها إلى مصر لتحملها تحياتها إليه (3).

⁽³⁾ يشير نجيب محفوظ إلى أن الفتاة الأمريكية الزائرة في العشرين من عمرها، ولأن الحديث يدور في أو ائل الثلاثينيات - قبل تخرج السراوي سنة 1934 - فإن الفتاة مولودة قبل بداية الحرب، وهو ما لا يستقيم من زمالة أمها للدكتور ماهر في السوربون بعد نهاية الحرب!.

_____ أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

علاقة نسائية قديمة تستدعى أن يتحدث الراوى وزميله عن "جمال" أستاذهما الذى يؤهله لدور الفتى الأول فى الأفلام المرية، ولكن الحوار بينهما لا يفضى إلى المزيد عن حياة الدكتور العاطفية وعلاقاته النسائية. الراوى يستدعى بيت شعر للفرزدق يذكره دائما بوجه أستاذه:

فما يكلم إلا حين يبتسم

يغضي حياءً ويغضي من مهابته

ثم يقول:

- ما أتصوره أبدا متخلياً عن وقاره، فإذا كان الوقار لباسا لغيره فهو منه بمثابة اللحم والعظم.

فى غيابه لا يتجاوزان الحد ولا يخوضان فى سيرته، فهما لا يتحدثان مثلا عن السر فى عدم زواجه، ولا يتطرقان إلى حياته الخاصة المجهولة!

أما عن علاقة الدكتور ماهر بزميله وصديقه الدكتور إبراهيم عقل، المكروه من تلاميذه بحيث يمثل النقيض الكامل لماهر نفسه، فإنها حميمة ووثيقة. وليس أدل على قوتها ومتانتها من أن الدكتور إبراهيم عندما يتعرض لاتهام في عقيدته بعد العودة من البعثة يتوسل بكثيرين – على رأسهم صديقه وزميله في هيئة التدريس الدكتور ماهر عبد الكريم – لإخماد الفتنة واسترضاء مؤججيها.

يقف الدكتور ماهر إلى جوار صديقه دائما، وعندما يفقد الدكتور إبراهيم ولديه في محنة قاسية، لا يتخلى عن ثباته وتجلده إلا بعد حضور ساهر عبد الكريم

الدكتور ماهر: خفض جفنيه على دمع تفجر رغم إصراره على الظهور بمظهر الثبات والصبر.

وبعد "الدروشة" التى لاذ بسها الدكتور عقل وأثارت الأقاويل والجدل، كان الدكتور ماهر يفند كل حجة يأنس منها هجوما ولو من بعيد على مسلك صديقه الحميم. وهو يدافع باستماتة عن ذكاء صديقه ويشيد بعقليته الفلسفية الشاملة، وإذ يبلغه الراوى بما يقوله ضابط البوليمس السياسي المتقاعد أحمد قدرى عن " قتل" ابنى الدكتور عقل، يبدى من الدهشة ما لم يعلنه وجهه الرصين الهادئ من قبل، ويعلق رافضاً مستنكراً: لا أصدق أن المرحوم إبراهيم عقل كان يخفى عنى سراً.

وفى الاحتفال بعيد ميلاده الخامس والسبعين، يتذكر الدكتور ماهر صديقه القديم – بعد سنوات من موته – ويقول فجأة:

- رحم الله إبراهيم عقل..

ويتساءل الراوى: ما الدى دعاه إلى تذكره؟. كنان أحبب الأصدقاء لقلبه، ولم اشهد دمعه إلا يوم جنازته عام 1957.

وكأنما يجيب الدكتور ماهر عن تساؤل تلميذه عندما يقول:

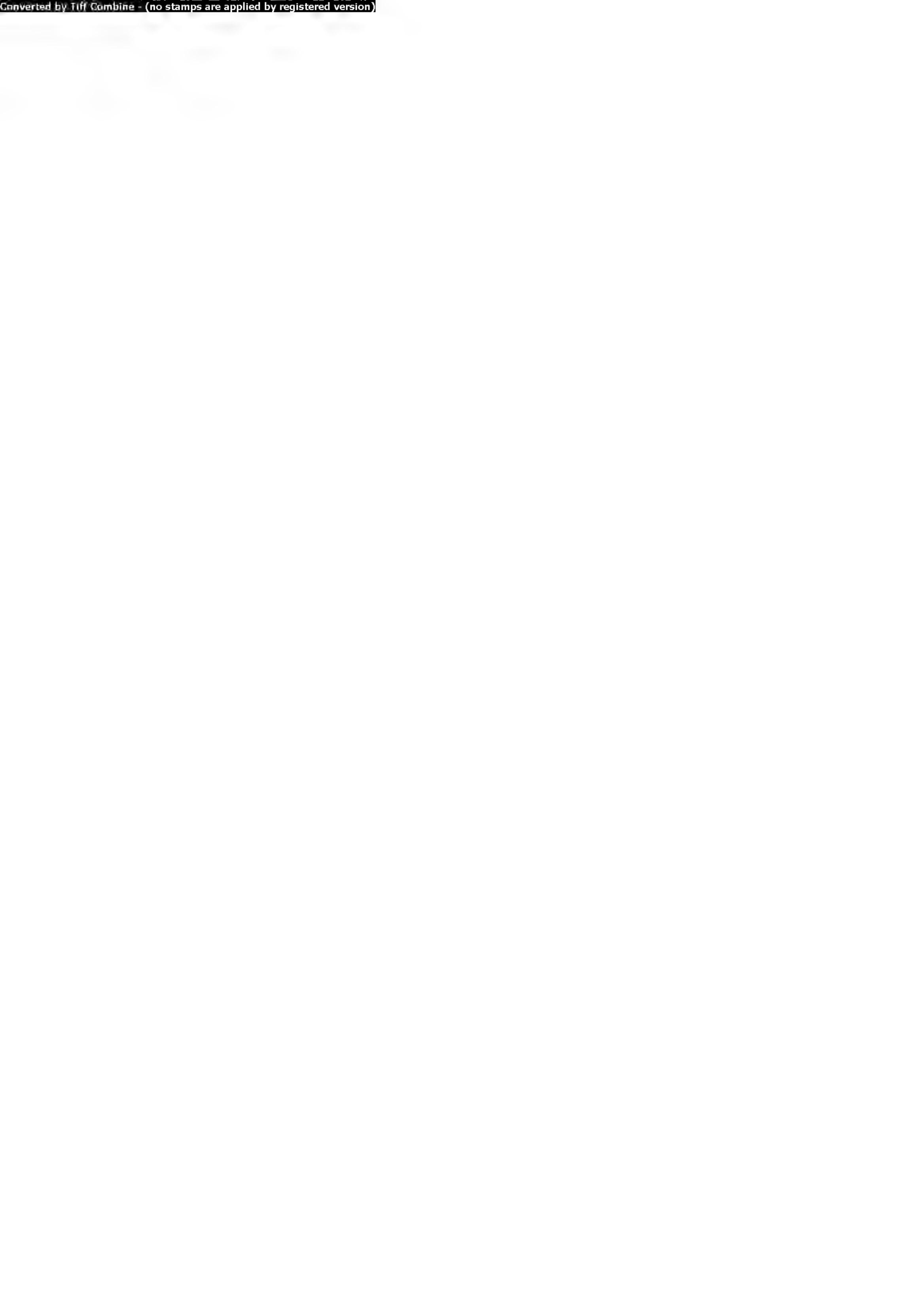
- سلم بالإيمان تسليمه بالموت وبالحقائق الملموسة مثل شروق الشمس.

الاختلافات كثيرة بين إبراهيم عقبل ومناهر عبيد الكريم، ولكن الصداقة تجمعها متجاوزة كل اختلاف. وبقاء ذكرى إبراهيم حية في أعماق الدكتور ماهر تنم عن عمق الصداقة بقدر منا تكشف عن الجوانب

المضيئة فى عالم نجيب محفوظ المضيئة فى عالم نجيب محفوظ المضيئة فى شخصية إبراهيم عقل؛ تلك الجوانب التى غابت عن عيون الآخرين.

وإذ تقترب رحلة الدكتور ماهر فى الحياة من نهايتها، فإنه يقدم ما يشبه الوصية فى مخاطبته للمحتفلين بعيد ميلاده: قولوا ما شئتم، لا جديد فى التشاؤم، ولكن الحياة فى صالح الإنسان، وإلا ما زاد عدده باطراد، وما زادت سيطرته على دنياه.





Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع





ــــ أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

بنتمى الدكتور محمود درويش إلى جيل الراوى، وبفضل الزمالة فى كلية واحدة يستطيع نجيب محفوظ أن يرصد ما يتميز به درويش من ذكاء واجتهاد خارق، وما يتمتع به من مكانة محترمة بين الزملاء والأساتذة المصريين والأجانب.

على المستوى الشخصى ببدو محمود درويش جافا منطويا على نفسه، فهو لا يعرف الصداقة لأن حدود العلاقات الإنسانية عنده تنتهى عند المزاملة والمصاحبة. وربما يكمن السر فى ذلك إلى نشأته الاجتماعية المتواضعة من ناحية ومعاناته من الحرمان والكبت الجنسى من ناحية أخرى. وليست صدفة – وإن تكن فهى دالة – أن الوجود الوحيد لمحمود درويش خارج الفصل المخصص له فى "المرايا" يأتى فى سياق الحديث عن سعاد وهبى التى تحولت إلى "ظاهرة" مثيرة للفتنة بين الطلاب، وعنها يقول درويش:

-- إنها غانية لا طالبة..

ويضع نجيب محفوظ يده على مفتاح مهم لتفسير وفهم شخصية محمود درويش فى قوله: وأما سعاد وهبى فكادت تتسبب فى جنونه، ولكنه بدلا من أن يغازلها أو يحاول ذلك على الأقل راح يحمل على" تهتكها" حملة كادت تبلغ العلانية، وكان أول من ابلغ العميد عن تبرجها وعن الفتنة التى تثيرها فى قاعة المحاضرات.

ما المخرج من أزمة الطالب المتفوق الخجول المحروم الذى يعمل أبوه "إمام مسجد" بكل ما تعنيه المهنة من سيادة التفكير الدينى؟ ما السبيل للخروج من الصراع الحاد بين حيويته وبين حرمانه الإجبارى؟!. كان العلاج هو الزواج المبكر من ابنة العم اليتيمة الريفية الأمية!. قد لا تكون الزوجة المناسبة باعتبار ما سوف يكون، ولكنها "مفيدة" للخلاص من الكبت الجنسى والتفرغ للعلم وحده: أراحت باله، وأطلقت قواه فى التحصيل دون عائق. ولم يعد له من اهتمام إلا العلم والتفوق.

محمود درويش إذن نموذج للأستاذ الجامعى الذى كان طالباً متفوقاً ليس له من هدف إلا التفوق دون اهتمام يُذكر بالأجواء السياسية والثقافية والاجتماعية التى ينشغل بها العاديون من الطلاب: لم يكن يفرق بين مصطفى النحاس وإسماعيل صدقى، وأحيانا كان ينسى اسم "الباشا" الذى يرأس الحكومة.

وهو لا يقنع بتفوقه الدراسى وسلبيته السياسية، فيابى إلا أن يعيب على زملائه اهتمامهم بم لا يفيد: كان يتابعنا أحيانا ونحن نهدر بأحاديث السياسة وكأنه عاقل يستمع إلى مجانين.

ولا يكتفى الطالب المجتهد بإظهار دهشته من سلوك زملائه، فسهو

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

يمارس فعلاً عملياً يتوافق مع ما يؤمن به من أفكار ترفض الانشغال بغير تحصيل العلم والدروس: ولما اجتاحت موجة الإضراب الجامعة وقف حيالها غاضباً وعاجزا، وكان يتسلل للمكتبة فيقرأ ويقرأ وحده حتى تغلق أبوابها. ويوما وثب لمنصة الخطابة عقب خطبة ثورية ألقاها زعيم الطلبة. وثب إلى المنصة، وبجرأة جنونية، دعا الطلبة إلى الانتظام في العمل والعكوف على الدراسة باعتبارها هدفهم الاسمى، وهاج الطلاب وما جوا وطالبوا بإنزاله ولولا الاحترام الذي اكتسبه بتفوقه لاعتدوا عليه اعتداء مؤكدا.

كان منطقيا، بمقاييس الحركة الطلابية وما يسودها من إشاعات ومبالغات، أن يُتهم محمود درويش بالعمالة الأجهزة الأمن، وأن يُتهم أبوه بترشيحه باعتباره من ألسنة إدارة الأمن وعيونهم!.

ولأن للراوى رأيه السلبى فى محمود درويش منذ البدء: استثقلت ظله من أول يوم، فإنه لا ينفى الإشاعة التى انطلقت حول علاقة محمود بأجهزة الأمن: وكدت أؤمن بصدقها عقب تخرجنا عندما أختير محمود درويش عضوا فى بعثة إلى فرنسا فى فترة من الزمن توقفت البعثات فيها تماما.

أتكون البعثة هى مكافأة العمالة والخيانة؟!. الاتهام الموجه إلى محمود أنه أرشد إلى زعماء الطلبة، وكم هو اتهام متهافت هزيل!. أهؤلاء الزعماء الذين يخطبون ويحرضون علانية من المجهولين لدى أجهزة الأمن بحيث نظهر الحاجة إلى أمثال محمود درويش ليرشد عنهم؟!.

بعد التخرج في الجامعة تنقطع الصلة طويلا بين الراوى ومحمود درويش، ولا تعود العلاقة إلا بعد أن يتحول المبعوث إلى مدرس في الكلية

مرويش عمود درويش

يفكر في إصدار سلسلة كتب عن فلسفة التصوف.

بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية أضطر محمود إلى مغادرة باريس والحصول على الدكتوراه من سويسرا. عاد في صورة جديدة، مليئة بالحيوية والصحة والعافية.

لا يستمر الاتصال بين الراوى وزميله القديم، وبعد أعوام يلتقيان في صالون أستاذهما الدكتور ماهر عبد الكريم: وكانت قدمه قد رسخت في عالم التأليف وصدر له أكثر من ثلاثة كتب عدت من المراجع الهامة في دراسة التصوف في العصر الحديث. وسمعت عنها الثناء تلو الثناء من أستاذنا ماهر عبد الكريم. ويومها سألته عن أحواله فقال:

- لى أربعة أبناء فى كليات الهندسة والتجارة والحقوق والآداب وبنت متزوجة من ضابط طيار..

فسألته باهتمام:

- هل تمارس التصوف؟

فأجاب ضاحكاً:

- كلا، ولكن لا مراء في أن الإنسان لا يتخصص إلا في مادة متغلغلة في نفسه.

أستاذ راسخ فى تخصصه وناجح على المستوى العائلي. ليسس متصوفاً، ولكن المادة التى أنفق فيها عمره تترك آثارا فى نفسه وتقوده إلى الطمأنينة والثقة والرضا والقدرة على التوافق مع الحياة.

استاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

إن العلاقة بين محمود درويش والراوى ليست متوهجة، واللقاءات القليلة بينهما بعد مرحلة الزمالة الجامعية تخضع للصدفة وحدها، وصولا إلى الانقطاع الكامل: ثم دُعى للتدريس في إحدى الجامعات العربية فسافر خارج القطر وانقطعت عنى أخباره.

محمود درویش نموذج تقلیدی لأستاذ الجامعة الغارق فی التخصص والقانع بذاته والمنغلق علی نفسه، وفی حیاته الشخصیة أزمة لا یحیط بها الراوی ولا یتوقف عندها طویلاً؛ الزواج المبكر من ابنة العم الریفیـة الأمیـة. قد تكون مناسبة بالنسبة لطالب یقاوم الحرمان الجنسی ویواجه الكبت، ولكنها لیست لائقة بأستاذ جامعی مثقف. بعد عودة محمود من البعثة یطرح عدلی المؤذن – علی الراوی – مشكلة الانسجام والتوافق بین الزوجین:

- عاد خواجا كما ترى ليجد في انتظاره زوجة ريفية أمية.

المشكلة نفسها يفكر فيها الراوى دون أن يقوى على طرحها لأن علاقته مع محمود درويش باهتة لا تتجاوز الزمالة إلى الصداقة التى تتيح المكاشفة: وفكرت في زوجته التي اختارتها الظروف ربة لبيت من المثقفين وهي بدائية بكل معنى الكلمة، فوددت لو أتسلل إلى أعماق ذلك الجانب من حياته، ولكنه كان يبدو متألقاً بالسعادة والنجاح.

أستاذ جامعى، و أبناء يدرسون الهندسة والتجار والقانون والآداب، أما الزوجة الأم فجاهلة بدائية!. ذلك الجانب المخبوء المستور فى حياة محمود درويش لا تتسع له " المرايا"، ولكن الظاهر يوحى بالسعادة والرضا والإقبال على الحياة.



خانصة

توقفنا في الفصول السبعة السابقة أمام صورة أستاذ الجامعة كما يقدمها نجيب محفوظ في "المرايا"، ولعل في تنوع النماذج القدمة ما يكشف عن حقيقة أولى ينبغي التسليم بها وهي أن الأستاذ الجامعي ليس إلا نتاجاً للواقع الذي يعيش ويعايشه.

ولأن في الواقع من يتسمون بأخلاق مثالية سامية ومن يهبطون إلى الدرك الأسفل من الانحطاط، فإن في أساتذة الجامعة من يستحقون التقديس ومن لا يليق بهم إلا الازدراء والتحقير.

وعند مناقشة الصورة العامة لأستاذ الجامعة كما يقدمها محفوظ، يحسن بنا أن نتوقف أمام الملامح السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لهذه الصورة.

على المستوى السياسى يتوزع أساتذة نجيب محفوظ بين غياب الانتماء السياسى الواضح المحدد" إبراهيم عقل وسرور عبد الباقى ومحمود درويش" وبين الانتماء الشكلى غير الأصيل" ماهر عبد الكريم" وصولا إلى اليسار بجبهته العريضة التى تضم الشيوعيين والناصريين والمنتمين إلى الطليعة الوفدية "عزمى شاكر وكامل رمزى" فضلاً عن الانتهازية السافرة الفاجرة التى تستعصى على التصنيف" زهير كامل". ومثل هذا التقسيم قد يكون معبراً عن المرحلة التاريخية التى تنتهى فى أوائل السبعينيات، ولكن خريطة الانتماء السياسى طالتها تطورات فى المراحل التالية، وهو ما لم تعبر عنه" المرايا" وعموم كتابات نجيب محفوظ الأخرى.

من الناحية الاقتصادية والاجتماعية تتنوع الأصول الطبقية لأساتذة نجيب من الفقر المدقع "كامل رمزى ومحمود درويش" إلى الثراء الفاحش " سرور عبد الباقى وماهر عبد الكريم" مروراً بالوسطية والاعتدال " إبراهيم عقل وزهير كامل وعزمى شاكر". هذا عن الأصول "السابقة" للأستاذية، أما ما يترتب على الوظيفة من متغيرات اقتصادية فلا يحظى باهتمام خاص من نجيب محفوظ وإن أشار إلى استثمار البعض لعلمهم وسمعتهم الجامعية كما أشار إلى العمل في الجامعات العربية، وهي الظاهرة التي ازدادت انتشاراً مئذ أوائل السبعينيات.

ويركز نجيب على الدور الثقافي لأستاذ الجامعة عبر محاور مختلفة تتمثل في السلبية والانعزال عن المجتمع "إبراهيم عقل وسرور عبد الباقي" والانتهازية التي تستغل الثقافة ولا توظفها "زهير كامل" والانفتاح الإيجابي على المجتمع ومثقفيه" ماهر عبد الكريم" بالإضافة إلى الالتزام الأكاديمي الذي لا ينعزل تماماً ولا يبالغ في الاندماج "عزمي شاكر - كامل رمزي - محمود درويش".

وتبدو الإشارة ضرورية إلى أن أساتذة الجامعة الذين يقدمهم نجيب محفوظ، باستثناء أستاذ الطب سرور عبد الباقى والدكتور ماهر عبد الكريم، يؤلفون كتباً يسهمون بها في إثراء الحياة الثقافية في مناحيها المختلفة.

ولعل أكثر ما يلفت النظر في صورة أستاذ الجامعة كما يقدمها نجيب محفوظ، غياب الاهتمام بتفاصيل العمل الجامعي اليومي من حيث المحاضرات والأنشطة الطلابية، ذلك أن التركيز الأكبر ينصب على المامح الإنسانية دون طبيعة العمل وخصوصيته.

استاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

المصادر والمراجع

أولا . المصادر

فى "تمهيد" الدراسة أشرنا إلى بعض أعمال نجيب محفوظ مختصرة على النحو التالى:

- فصر الشوق = قصر
 قصر الشوق = قصر
- عصر الحب = عصر
 الباقى من الزمن ساعة = الباقى
 - ♦ خان الخليلي = خان
 ♦ بداية ونهاية = بداية
 - حضرة المحترم = حضرة
 القاهرة الجديدة = القاهرة
 - ♦ ثرثرة فوق النيل= ثرثرة ♦ المرايا = المرايا
 - الحب تحت المطر = الحب ♦ السكرية = السكرية
 - ♦ الطريق = الطريق

أما في فصول الدراسة فقد اعتمدنا على رواية "المرايا" ط4، 1979.

ثانياً ۔المراجع

أ – الكتب

- أنور الجندى: عبد العزيــز جـاويش، الـدار القوميـة للطباعـة والنشر،
 سلسلة أعلام العرب، العدد44، القاهرة،1965.
- بودلير" شارل": أزهار الشر، ترجمة محمد أمين حسونة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة آفاق الترجمة، العدد الثامن، القاهرة، 1996.

المصادر والمراجع

- رجاء النقاش: في حب نجيب محفوظ، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1995.
- د. رفعت السعيد: تاريخ الحركة الشيوعية المصرية 1957–1965، شركة الأمل، القاهرة، ط1، 1986.
- عبد الرحمن صدقى: الشاعر الرجيم بودلير، دار المعارف، سلسلة اقرأ،
 العدد السابع، ط2، د.ت.
- فتحى رضوان: مشهورون منسيون، مؤسسة أخبار اليسوم، كتاب
 اليوم، العدد27، القاهرة، 1970.
- مصطفى بيومى: الرؤية الوفدية فى أدب نجيب محفوظ، طبعة محدودة،
 المنيا، مكتبة السلام، 1991.
- صورة الموظف في روايات نجيب محفوظ، طبعة محدودة، المنيا، مكتبة السلام، 1990.
- معجم أعلام نجيب محفوظ.. دراسة تحليلة، دار الأحمدى، القاهرة ط2، 1998.

ب-الدوريات

- مجلة الأقلام، بغداد، تموز 1984.
- مجلة الهلال، القاهرة، فبراير 1970.

المحتنوبات

5.	مقدمه د. ماهر مصطفی کامل "رئیس جامعه المنیا"	•
7	مقدمه د. محمد عاطف كشك "مدير مركز دراسات المستقبل"	•
11	تمهيد	•
29	الفصل الأول – إبراهيم عقل	9
47	الفصل الثاني زهير كامل	•
61	الفصل الثالث – سرور عبد الباقي	•
71	الفصل الرابع – عزمي شاكر	•
79	الفصل الخامس – كامل رمزى	•
87	الفصل السادس ماهر عبد الكريم	•
03	الفصل السابع — محمود درويش	•
11	المصادر والمراجع	•

المؤلف

أولاً – الروايات

- الصورة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة أصوات أدبية، 1995.
- لمحات من حياة المواطن م.ب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 1996.
 - أحلام سرية، دار الأحمدى للطباعة والنشر، 1998.

ثانياً – النقد

- صورة الموظف في روايات نجيب محفوظ، مكتبة السلام، المنيا، 1990.
- الرؤية الوفدية في أدب نجيب محفوظ، على نفقة المؤلف، طبعية
 محدودة، المنيا، 1991.
- الفكاهة عند نجيب محفوظ، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمسان،
 1994.
- عصير الشخصية المصرية. قراءة في رباعيات صلاح جاهين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1996.
- معجم أعلام نجيب محفوظ. دراسة تحليلية، مطابع الأهرام،
 ط1،1997، دار الأحمدي، ط2، 1998.
 - معجم أعلام "شقة الحرية" لغازى القصيى، مطابع الأهرام، 1997.

- محمد بن عبد الله " صلعم" في عيون الأدب العربي، دار الهدى، 1998.
 - جمال عبد الناصر في عيون الأدب العربي، دار الهدى، 1998.
 - القرآن الكريم في أدب نجيب محفوظ، دار الأحمدي، 1999.
- معجم أسماء قصص يوسف الشاروني، مركز الحضارة العربية، 1999.

ثالثا - كتب للأطفال

- الحياة الجميلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990.
 - سيدة القرن العشرين، دار الأحمدي، 1999.





كتاب المستقبل

تهدف هذه السلسلة إلى:

- رفع مستوى الوعى بالقضايا والتحديات المستقبلية
 والنهوض بمستوى الحوار حولها لدى مختلف القوى
 الإجتماعية ،
- استثارة الاهتمام المجتمعي الجاد بالمستقبل وقضاياه .
 - □ الإسهام في تكوين مكتبة علمية لدراسات المستقبل من
 خلال إبداعات العلماء والمفكرين المصريين .

إن هدف الدراسات المستقبلية ليس فقط معرفة احتمالات واتجاهات التغير والاستعداد لها ، وإنما أيضا التأثير فيها في الاتجاهات المطلوبة .

Bibliotheca Alexandrina

O395331

O395331